

رحلة جديدة إلى أرض المشرق
(1731- 1732)

تأليف: جان باتيست طولّو

ترجمة: عبد الهادي الإدريسي

مراجعة: د. فريد الزاهي

رحلة جديدة إلى أرض المشرق

(1732-1731)

وتتضمّن وصفاً لمدن الجزائر، وتونس، وطرابلس الغرب، وإسكندرية مصر، وأرض المقدس، وإسطنبول، وغيرها

تأليف

جان باتيست طولّو

ترجمة

عبد الهادي الإدريسي

مراجعة

د. فريد الزاهي

© هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة دار الكتب الوطنية.

فهرسة دار الكتب الوطنية أثناء النشر.

DS47 .T65512 2013

Tollot, Jean Baptiste

رحلة جديدة إلى أرض المشرق (1731-1732): وتتضمن وصفاً لمدن الجزائر وتونس وطرابلس الغرب وإسكندرية مصر وأرض القدس واسطنبول وغيرها/ تأليف: جان باتيست طولو؛ ترجمة: عبد الهادي الإدريسي؛ مراجعة: فريد الزاهي -

ط. 1.- أبوظبي: هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة، 2013.

ص. : سم.

ترجمة كتاب:

Nouveau voyage fait au Levant ès années 1731 & 1732 : contenant les descriptions d'Alger, Tunis, Tripoly de Barbarie, Alexandrie en Egypte, Terre Sainte, Constantinople, &c.

تدمك: 978-9948-17-268-0

1. المشرق الأوسط -- وصف ورحلات 1731---1732. 2. أفريقيا الشمالية-- وصف ورحلات - 1731-1732.

أ. إدريسي، عبد الهادي، 1957- ب. زاهي، فريد. ج. العنوان.





دار الكتب الوطنية

الطبعة الأولى 1434هـ 2013م

أبوظبي - الإمارات العربية المتحدة

ص.ب: 2380

publication@tcaabudhabi.ae

www.tcaabudhabi.ae

رحلة جديدة

إلى أرض المشرق

إلى القارئ

لقد ألَّف الكثيرون كُتُباً تروي حكاياتٍ لرحلات قاموا بها إلى أرض المشرق، استرعت انتباه البلاط والبلد، وما تزال ذكرى بعضها حاضرة في الأذهان، بحيث لا أجرؤ على تمنّي أن يحوز هذا الكتاب الذي أتشرَّف بتقديمه اليوم إلى القراء بعضاً من نجاحها. ولست أطمح حتى إلى وضع نفسي في مصافِّ الرحالة الذين ذهبت بهم رحلاتهم إلى أبعد مما ذهبتُ، وقُصارى مطمحي أن أُضَمِّن في كتيِّب صغير بعضَ الملاحظات المختصرة قدر المستطاع، والتي ما كنت لأسطِّرَها لولا إلحاح الأصدقاء عليّ في ذلك، بل إني رفضت حتى أن أعطي لكتابي هذا اسماً عدا «مذكرات من المشرق». أما الآن وقد وقعت الفأسُ في الرأس وخرج الكتاب إلى الوجود فإني لأعلم حق العلم أني لن أعدِمَ منتقداً، لكن عزائي هو الحقيقة التي أعلم أني لم أجاوزها، والتي لن يستطيع أحد تغييرها أبداً.

لعلّ ما أبديته في كلماتي هذه من مخاوف قد نفَّر القارئ مني، لكن ما الحيلة والتواضع المفرط والغرور كلاهما لا يليق برجلٍ يحمل القلم ليكتب؟ فإن هو أبدى ترفُّعاً لم يَحمَد منه القارئُ ذلك، فخَفَضَ من قدره مثل ما رفع هو منه، أمّا إذا أبدى تواضعاً فإنّ القارئ سيَحمِل قولَه على محمل الصدق أيّاً كان هذا القول. ولذلك انبغَى اتخاذُ موضعٍ وسط بين الموضعين، وليس هذا بالأمر السهل، ولا أنا أدّعي أنّي استطعته. وما أعِدُ به من خلال عنوان كتابي هذا هو أن أقدّم إليك أيها القارئ وصفاً دقيقاً لبلاد المشرق التي زرتها في رحلتي.

قد يقول قائل: وما الفائدة من ذلك ورفوفُ مكتباتنا مليئةٌ بكتب الرحلات؟! وجوابي أنّ الرواة لا يروون كلهم شيئاً واحداً، بل يلاحظ كل منهم أشياء مختلفة عما لاحظه غيره، ويُدَوِّن بالتالي أشياء مختلفةً عما يدونه غيرُه، ناهيك عن تفاوت مستوياتهم الفكرية، وعن كون بعضهم يُضخِّمون ما يرونه ويزيدون فيه استجلاباً للاهتمام. بل إن منهم من تعوزه الصحة أو يُقعِده العجز، فيكتفي بالنقل عمَّن يَتَوَسَّمُ فيه الصدقَ من الرُّواة. ولذلك يبقى للقارئ الحصيف والعارف الخبير أن يميِّزا بين الغَثِّ من كل ذلك والسمين. بل إن هناك من رواة الرحلات من أخرج على الناس كتاباً يروي فيه رحلة يزعم أنه قام بها، وهو في حقيقة الأمر لم يغادر مكتبه أبداً. ولست أخشى أن أكون من هؤلاء؛ لأني حين دونت ملاحظاتي فعلت ذلك وأنا في الأماكن التي دوّنت فيها تلك الملاحظات، ناهيك عن أنني كنت أدوّنها لمتعتي الشخصية لا للنشر، فأنا كما أسلفت إنما أقدمت على نشر هذا الكتاب استجابةً لإلحاح أصدقائي عليّ في ذلك، ووضعت عليه اسمي بعد أن صحّحت مَتْنَه إثر عودتي إلى فرنسا. وإني لأعلم

حق العلم أنّ سهام النقد لن تلبث أن تصوَّب حادةً مسنّنة إلى الكتاب وإلى صاحبه معاً؛ لأنهم ربما كانوا يودّون أن يجدوا حكاية طريفة، أو كلمات لطيفة، أو حتى قصيدة شعر، عوض ما يشتمل عليه الكتاب من وصفٍ لأماكنَ ومغامراتٍ وسط العواصف وغيرها مما يعرِضُ للمسافر. على أني آمل على الرغم من ذلك أن أجد من بين القرّاء المُنصِفَ العادل الذي لن يَجحَدَني حُسنَ نيّتي.

رحلة جديدة إلى أرض المشرق

بقلم السيد «طولو»

في مايو / أيار 1731

لّما كنت قد قمت بأسفار عديدة عن طريق البرّ قادتني إلى إسبانيا وألمانيا وإنجلترا وبلاد الفلاندر وغيرها، فقد تمنّيت طويلاً أن تتاح لي الفرصة للسفر بحراً، لا بدافع حبّ الاستطلاع وحده، علماً بأن هذا كان يملك عليّ مَجامِع نفسي دائماً، بل كذلك لكي أطّلع على أحوال الناس في البلاد البعيدة، وأرى بعيني ما كان يروي عنه أصحابُ كتب الرحلات. وقد سنحت لي فرصة تحقيق هذا الحلم في صحبة الفارس دي لا كوندامين من الأكاديمية الملكية للعلوم، الذي تعلّمت منه أشياء كثيرةً كانت من قبلُ مجهولةً لديّ، وأستطيع اليوم أن أقول إن سفري كان مفيداً كما رجوت، وإنه قد حقّق لي ما كنت أنتظره منه.

الانطلاق من باريس

غادرنا باريس يوم العاشر من مايو / أيار 1731 على متن العربة الذاهبة إلى مدينة ليون، وبلغناها يوم الرابع عشر من الشهر عند الساعة الثالثة بعد الظهر، فلم نمكث فيها إلاّ ما لَزِمَنا من وقتٍ لاقتناء بعض المؤونة وامتطاء سفينة منحدرة مع نهر الرون حتى مدينة أفينيون في الجنوب.

الانطلاق من ليون

غادرناها عند الخامسة عصراً، فلما كانت السابعة مساء اجتزنا جسر «فينا» الذي يقولون إن الرومان هم بُناته، والذي لم يبقَ منه سوى أطلال. وبلغنا «أنكون» يوم الخامس عشر، فنزلنا البرَّ، وذهبنا إلى «مونتيليمار» حيث قضينا ليلتنا.

انطلقنا ثانية في صباح الغد فبلغنا في اليوم التالي؛ السابع عشر من الشهر، قبالة فيلنوف - ليزافينيون،

حيث اضطررنا للانتظار حتى يستيقظ الحراس من نومهم كي يفتّشوا السفن. فلما انتهوا من عملهم دخلنا أخيراً إلى أفينيون، التي لم نقضِ فيها أكثر من أربع ساعات. على أني رغم هذا المقام القصير استطعت زيارة قلعة المدينة التي بدت لي غير حصينة، ولا هي بالقادرة على الدفاع عن المنطقة فيما لو دعت الحاجة إلى دفاع.

الانطلاق من أفينيون

خرجنا في اليوم ذاته من أفينيون ممتطين أرائك تجرّها البغال، تشبه العربات التي تصل ما بين باريس وفرساي، وهي تقطع نحو عشرة فراسخ في اليوم.

بلغنا مرسيليا يوم الثامن عشر من الشهر عند السابعة مساء، وفي اليوم التالي زرنا دار السلاح التي يقولون عنها إنها أجمل مثيلاتها في المملكة، وقد وجدتها حقاً كما كنت أتصوّرها.

في اليوم التالي؛ العشرين من الشهر، زرنا الميناء الجميل الذي تحرس مدخله القلعة والقصر، وتنتصب على جوانبه دكاكين تبيع من كل أصناف السلع. وبفضل هذا الميناء والمتنزه الممتدّ وسط المدينة والمزروع أشجاراً أنيقة يقضي المرء وقتاً ممتعاً خلال مقامه هناك. وكنا سنقضي في المدينة وقتاً أطول لولا أن علمنا أن السفن التي كانت ستحملنا قد رست في الخليج قبالتها.

الانطلاق من مرسيليا

غادرنا مرسيليا يوم الحادي والعشرين، وبلغنا مدينة «تولون» عند السابعة من مساء اليوم نفسه. فلما كان صباح الغد ذهب السيد كوندامين للقاء السيد «ميثون» والي الملك على ذلك الإقليم. وقد هيأ له منزلاً من عنده، وعزم علينا أن ننزل فيه، فبقينا هناك حتى يوم رحيلنا.

خلال الأيام الثمانية التي قضتها السفن راسية في الخليج واظب قادتها على إقامة مآدب على ظهرها يجعلونها أفخم ما يستطيعون، وتحضرها سيّدات المدينة قاطبة، فيتنافسْنَ في إبداء مفاتنهنّ، وإني على يقين أنّه ما منهم واحدةٌ إلاّ وتتمنى أن تبقى السفن راسية مكانها طيلة الموسم عِوَض أن ترحل حاملة معها هؤلاء الشباب إلى حيث تنتظرهم أهوال البحر ومخاطره.

كانت مجموعتنا مكوَّنةً من أربع سفن، تحت قيادة السيد «دو غواي تروان»، وهو نائب عامّ للملك، وقد امتطى متن سفينة «ليسبيرانس» ذات الأربعة والسبعين مدفعاً، ترفع لواء مربعاً على صاريتها الخلفية. أما الفارس «دي كامي» الذي أبحرنا برفقته فقاد سفينة «اليوبار» ذات الأربعة

والستين مدفعاً، فيما قاد السيد «دي فوازان» سفينة «تولوز» ذات الستة والخمسين مدفعاً، والسيد «دي لا فاليت» قاد سفينة «الألسيون» ذات الخمسين مدفعاً، علاوة على قارب كبير مخصّص للصيد من أجل تزويدنا بالسمك خلال الرحلة، وقد حملنا معنا من المؤونة ما يكفينا لستة أشهر.

يوم الثامن والعشرين من الشهر أنزلتُ متاعَنا في السفينة، وفي اليوم التالي تلقى الجميع الأمر بالمبيت على ظهرها، فالتحق بها القادة والمسافرون جميعاً. وعند الرابعة فجراً من يوم التاسع والعشرين أعطى القائد أمره بالانطلاق تحت ريح شرقية طيّبة. فلما كان الصباح وزادت الريح من شدّتها قليلاً أنزلوا عوارض الصواري الكبرى، وخفضوا من ارتفاع الصغرى تحسّباً للعواصف، غير أنّ الريح التي واصلت الهبوب طيلة النهار عادت في الليل فسكنت.

في اليوم التالي؛ وهو الأول من شهر يونيو / حزيران، بقيت الريح ساكنة حتى اضطروا لرفع العوارض وإشراع القلوع مع الاستعانة بحبال الجرّ حتى مخرج البرج؛ لأن الريح مالت فصارت تهب من الجنوب الشرقيّ، وقد بقيت على حالها في الغد، فاضطررنا إلى الاستعانة ثانية بحبال الجرّ حتى بلغنا قبالة حصن سانت لويس.

الانطلاق من تولون

في اليوم الثاني من الشهر أعطى القائد أمره بالاستعداد، وفي الرابعة من فجر اليوم التالي أطلق المدفعُ إيذاناً بالإقلاع، فما حلّت السادسة صباحاً حتى كنّا نمخر العباب وقد نشرت السفن جميعاً أشرعتها، حيث سرنا في خط متعرّج حتى بلغنا رأس «سيسي» عند السابعة، فتوقفنا هناك في انتظار الزوارق التي عادت بكلاليب الجرّ. فلما عادت الزوارق ورفعوها على متن السفن انطلقنا متجاوزين رأس سيسي الذي بقي على الشمال الغربي منّا. ولمّا كانت الريح شرقية طيبة فقد أخذنا في السير ميمّمين جنوب الجنوب الغربي.

عند السابعة مساء فارقتنا السفينة «الزفير» بقيادة «فارس دي سيلوس»، وهي التي ظلت برفقتنا منذ أن غادرنا الخليج، فسارت متجهة صوب «أبو قير»، حيث كانت مكلفة بمهمة حماية السوق المقامة هناك. وقد حيّانا قائدها بتسع طلقات مدفع، فردّ عليها قائدنا بخمس، ثم واصلنا الإبحار. ولما كانت الريح قد غيّرت اتجاهها في الليل فقد سارت السفن في خط متعرّج. وقاس الملاحون ارتفاعنا فوجدوا أنّنا على 41 درجة وخمس دقائق شمالاً. وقد دارت الريح خلال النهار متقلبة من جنوب الجنوب الغربي إلى الشمال الغربي، غير أنّها كانت طيّبة للملاحة، وكان البحر هادئاً.

لن أتابع سرد مجريات الملاحة؛ لأنّ ذلك قد يثير الملل في نفس القارئ غير الملاح ولا العارف بالبحر. وحتى لو فعلت فلن أجد ما أرويه غير تقلبات الريح وما تُجبرنا عليه من تغييرٍ في مسارنا كلما جرت بما لا يشتهيه الملاحون.

في الخامسة من مساء السادس من الشهر بدت لنا جزيرة مايوركا التي بقيت إلى جنوب الجنوب الغربي، على بعد نحو أربعة فراسخ. فلما كانت السادسة من مساء يوم السابع من الشهر كان أقصى طرف الجزيرة من ناحية الغرب يبدو لنا صوب جنوب الجنوب الشرقي.

همدت الريح أو كادت يومي الثامن والتاسع، فلمّا كانت العاشرة مساء رفع رئيس القافلة رايتين مزدوجتي الرأس، وأطلق خمس طلقات مدفعيّة ليأمر قادة السفن الأخرى بأن ينحرفوا بسفنهم، ثم عادت الريح تهبُّ عند منتصف الليل، فأرسل إليهم إشارات أخرى ليرفعوا الأشرعة المربّعة الكبيرة.

توجيه المدافع صوب الأرض

عند الثانية بعد الظهر من يوم العاشر من الشهر أعطى القائد إشارة توجيه المدافع صوب الأرض، فسرنا حثيثاً على هذا المنوال حتى تبدّى لنا رأس «كاسين» عند الرابعة عصراً إلى جنوب الجنوب الشرقي. فلما كانت السابعة مساء أصدر القائد أمره بإنهاء حالة التأهّب.

الرسوُّ قبالة مدينة الجزائر

عند فجر يوم الثاني عشر حثثنا السير كي نبلغ قبالة ميناء الجزائر، وبلغنا الخليج عند العاشرة، فألقينا المراسي في مياهه التي لا يتجاوز عمقها ثمانية وعشرين باعاً. وأطلقت المدينة إحدى وعشرين طلقة مدفع تحية للسفينة، ردّها عليهم القائد طلقةً بطلقةٍ.

في السادسة صباحاً ركبنا زورقنا لننزل إلى اليابسة. ويمّمنا شطر سفينة القائد لنتزوّد بتعليماته، غير أن البحر كان هائجاً فأشار إلينا أن نتابع طريقنا بلا توقّف إزاءه. وقد نزل معنا أيضاً السيد «دي لان» قنصل فرنسا في الجزائر، الذي أتى يتسلّم شؤون قنصليته. حيّاه القائد بسبع طلقات مدفعية وثلاث هتافات بحياة الملك، حتى إذا بلغ البّر حيّته المدينة بدورها بثلاث طلقات مدفعية ترحيباً به.

نزلنا أولاً في المنزل القنصليّ، ثم ذهبنا للقاء الدّاي حاكم البلاد برفقة السيد «دي بوكير»، وهو قائد سفينة حربية جاء يقدّم إليه لائحة بالشكاوى المتعلقة بالأعمال التي يرتكبها قراصنة الجمهورية على شواطئنا. وقد استمع الرجل بانتباه إلى ما كان يُقال له، لكنه لم يستجب إلى أيّ مطلب، بل أجّل النظر

في كل ذلك إلى الغد. وقد عامل الضباط بكل احترام، وقدم لهم قهوة وعصير ليمون وفواكه مجففة.

الداي

هو رجل في نحو السبعين من عمره، أعور العين اليمنى، يوصف بالنباهة وتوقُّد الذهن. كان قد قضى آنذاك سبع سنوات في حكم البلاد، تعرّض فيها لثلاث محاولات اغتيال نجا منها جميعاً، فكان بذلك أطول الدايات حكماً. وقد أرسل إلى قائد قافلتنا هدية تمثلت في 12 ثوراً، و50 خروفاً، و350 دجاجة، و4000 حبة ليمون حامض، فوزّعها القائد السيد «دو غواي» فوراً على سفن القافلة.

في ما حدث خلال الجلسات عند الداي

يوم الثالث عشر من الشهر جاء السيد «دي بوكير»، وبرفقته قائد المدفعية السيد «دي كريناي»، ومفوض قافلة السفن السيد «دي لا موث»، وعدد من الضباط، فتقدموا إلى الداي ليعرضوا أمامه ثانيةً ما كلّفهم ملك فرنسا به من مطالب يرفعونها إليه. فلمّا استمع إلى مطالبهم العديدة بهذا الشأن أجاب قائلاً إن قراصنة جمهوريته إذا كانوا قد ارتكبوا شيئاً مما يُتهمون به فهم لم يفعلوا ذلك عن أمره. فلما حدّثوه عن أحد عشر بحاراً اختُطفوا من أمام شواطئ «سبت» بينما كانوا يصطادون سمك السردين أجابهم بأنه قد أعادهم عند علمه بخبرهم إلى السيد «ناتوار»، وهو موثّق عقود في القنصلية، مضيفاً أنه لم يتردّد في تجريد القبطان الذي ارتكب ذلك الاختطاف من رتبته. وذكروا له أيضاً قضية سبعة بحارة من مدينة جنوة اختُطِفوا قرب شواطئنا، فأجاب قائلاً إنّ هؤلاء الناس من جمهورية جنوة لا من فرنسا، ولا يحقّ بالتالي للسلطات الفرنسية أن تتدخّل لحمايتهم. عند ذلك قال له السيد دي بوكير: إننا لا نفعل ذلك دفاعاً عن هؤلاء المواطنين الأجانب، بل لأن في اختطافهم من الشواطئ الفرنسية خرقاً للمعاهدات، ولذلك يتعيَّن عليه إطلاق سراحهم. وذكروا له كذلك قضية عبدين فرّا من أراضي فرنسا والتجأا إلى وهران، طالبين منه أن يأمر باي المدينة الذي يخضع لسلطته بإرجاعهما إلى بلدهما، لكنه أجاب قائلاً إنهما ليسا تحت سلطته، ثم سارع في تغيير مجرى الحديث، فذكر شخصاً يدعى «ميشين»، وهو تاجر فرنسي، قال الداي إنه أقرضه أموالاً، وشحن له سفينته بالبضائع على أن يبيعها في بلاده، ويشتري له بثمنها مدافع. وما وقع هو أنّ التاجر المعنيّ كان قبل الإبحار ببضائع الداي قد خسر كثيراً في تجارته، واجتمعت عليه ديون كثيرة، فلما نفد من كان معه من المؤونة التجأ إلى ميناء «تولون» ليتزوّد منها بما يلزمه، فما كان من دائنيه إلاّ أن اجتمعوا عليه، فأخذوا البضائع من دون أن يسألوا عن صاحبها الحقيقي، فباعوها، واستخلصوا ديونهم من ثمنها. والدّاي يطالب بأن تعوَّض عليه خسائره

قبل أن يعيد العبدين المطلوبين.

استمرت المباحثات ثلاث ساعات لم تُفضِ إلى شيء، فذهب السيد «بوكير» إلى الميناء عائداً إلى ظهر سفينته، وأعطى أمره إلى موثّق العقود في القنصلية بأن يأتيه بالبحارة الخمسة عشر المحرَّرين كي يركّبهم معه. فلما جاء البحارة رفض حاكم الميناء الذي لا يفارق الرصيف أبداً أن يسمح لهم بالإبحار ما لم يأتوه بإذن مكتوب من الداي بذلك. وقد أكّد له القنصل أنّ الداي هو من أمر بإطلاق سراحهم، فسمح لهم بالمرور. غير أنّ القارب الذي يحملهم لم يبلغ مرمى بندقية من اليابسة حتى جاء الأمر من الداي إلى حاكم الميناء بمنع البحارة من مغادرة البلاد؛ لأنه لم يأذن بإطلاق سراحهم. فما هي إلا هنيهة حتى صار الميناء كلّه في حالة تأهّب لمطاردتهم. ورأى قائد السفن الخطر الذي يتعرّض له البحّارة في قاربهم، فنزل في زورق وسار معترضاً طريق فرقاطة حربية كانت تسير متّجهة صوب السيد «دي بوكير» والبحارة الذين معه. لكن القنصل سارع في إرسال الترجمان إلى هذا الأخير يدعوه إلى ألا يبدي أي مقاومة، وأن يعود إلى الميناء كما يؤمر، فعاد السيد «دي بوكير»، حتى إذا نزل إلى اليابسة سأل القنصل عما يجري، فأجابه بأن الداي قد نقض عهده، وأنه أنكر أن يكون قد سمح بإطلاق سراح البحارة. فأرسل السيد «دي بوكير» القنصل من ساعته إلى الداي يسأله عن سبب هذا التراجع. وقد أتيح لي شرف مرافقة القنصل في مسعاه هذا، فلما وصلنا أدخلونا إلى برج توجد في أعلاه الغرفةُ التي يتّخذها مكاناً لنومه، حتى إذا بلغنا الباب أمرونا بخلع نعالنا، ثم أدخلونا إلى حجرة صغيرة من نحو اثني عشر قدماً طولاً في ثمانية أقدام عرضاً، يبدو أنها تُستعمل مدخلاً للغرفة الرئيسة. وقد وجدنا الداي هناك يستعدّ للنوم، فخاطبه السيد «دي لان» ناقلاً إليه شكوى السيد «دي بوكير» وعتابه، فما زاد في جوابه على أن قال إنه لم يأمر بعدُ بإطلاق سراح الأسرى، مضيفاً أنه سيفعل ذلك في الغد، وسيطلق معهم آخرين. فلما أبدى «دي لان» إلحاحاً على الموضوع قال له الداي من خلال مترجمه أن ارحل فلا رغبة لي الآن في سماع المزيد. وكذلك كان، فخرجنا من عنده ولم نظفر منه بشيء. فلما عدنا إلى الميناء أبلغ القنصل السيد «دي بوكير» بما كان من الداي، فلم يجد إلاّ أن أمَرَ بإنزال الأسرى الأحد عشر إلى اليابسة، حيث تم نقلهم إلى البيت القنصلي. فلما كان فجر الغد أرسل الداي يستدعي هؤلاء السادة جميعاً، ثم أرسل مَنْ جاء بالبحّارة الأسرى، فدفع بهم إلى السيد «دي بوكير» الذي أمر بهم فأُركِبوا في الزورق، وبُعث بهم إلى السفينة. ولعل في هذا ما يقيم الدليل على الطبع المتقلّب الذي تتميّز به عقلية تلك الأمة.

عند ذلك عادوا فذكروا للداي قضية الجنَويّين السبعة، والعبدين الفرنسيين اللاجئين إلى وهران،

فأجاب قائلاً: إن تلك مسألةٌ قديمة لم يعد مجال للحديث فيها، ولا سيما أن القنصل الذي وقعت الحادثة في أيامه وكذا القبطان الذي قام بها قد أصبحا في عداد الأموات. قال السيد «دي بوكير»: إن ذلك صحيح، لكن العبدين لا يزالان على قيد الحياة، ويتعيَّن بالتالي إرجاعهما. غير أن الداي وعوض أن يجيب على كلام السيد «بوكير» فضّل العودة إلى موضوع المدعو «ميشين»، فأسهب في الحديث فيه، وبلغ به الانفعال حدّاً جعله يرسل في طلب الرجل، وسأله: ألم أعطك ثلاثمئة وخمسين كيساً من الصوف شحنتَها في سفينتك؟ فأجاب الرجل: بلى يا سيدي، فعاد يسأله: وهل أرجعتَ إليّ مالي؟ فأجاب الرجل: لا يا سيدي، لم أفعل. عند ذلك استدار الداي نحو السيد «ناتوار» الموثّق قائلاً: إن القنصل المتوفَّى لم يعمل على إرجاع ماله إليه. فما إن أجاب بأنه ليس له بذلك علم حتى استشاط الرجل غضباً، فنادى بنفسه اثنين من الحراس وأمرهما بإلقاء القبض على الموثّق وعلى «ميشين» ووضعهما في السجن، ففعلا ما أُمرا به فوراً، واقتادا الرجلين. فلما رأى السيد «دي بوكير» ما وقع انتفض بكل ما يليق به من كبرياء وخاطب الداي قائلاً إنه بفعله هذا قد ارتكب خطأ جسيماً من شأنه أن يُفسد كل تفاهم ممكن بين ملك فرنسا والجمهورية. سمع الداي هذا الكلام وأدرك مقدار خطئه، فعاد إلى المسالة وقدم اعتذاره مؤكداً أنه قد أفلت زمامَ نفسِه تحت سلطان الغضب، ومكرراً مرات عديدة ندمه، ثم أرسل في طلب الموثق و«ميشين»، فلما حضرا عاد يُشبع هذا الأخير تعنيفاً وسباباً. أما السيد «دي بوكير» فقد انتظر حتى هدأت النفوس وعاد إلى طرح قضية البحارة الجنويين السبعة والعبدين الفرنسيين الفارّين من مراكش [المغرب]، فأجاب الداي قائلاً: إن هؤلاء ليسوا في يده، بل لا يعلم حتى في يد مَنْ هم اليوم. لمّا سمع السيد دي بوكير هذا الكلام قال: إذا لم يُجِب إلى ما طلبه فسوف ينسحب ويرفع الأمر إلى السيد دو غواي تروان نائب الملك ليرفعه بدوره إلى الملك.

وهكذا كان، فكتب السيد نائب الملك إلى الداي الرسالة التالية:

رسالة السيد دو غواي تروان نائب الملك إلى داي الجزائر

حضرة السيد العظيم الجليل:

لقد كلّفني سيدي الملك بأن أحلّ بأرض الجزائر لأعمل على تمتين أواصر التفاهم الذي يشاء جلالته أن تبقى ممتدّة بين مملكته وجمهوريّتكم، وأحرص على حماية تجارة رعاياه في بلدكم. كما أوصاني صاحب الجلالة بأن أرسل إليكم حال وصولي السيد دي بوكير، وهو قائد حربيّ ومفتش عام لبحرية جلالته، من أجل الحصول على تزكيتكم وتزكية السلطات الأخرى في جمهوريّتكم للسيد «دي لان»

قنصلاً عاماً للجالية الفرنسية، وكذلك من أجل أن يقدم إليكم شكوى جلالته من بعض الأعمال التي يقوم بها قراصنة جمهوريّتكم، في خرقٍ سافرٍ للمواثيق القائمة بيننا. وصاحب الجلالة لا يشك في أنكم ستعملون بلا إبطاء على إصلاح ما ترتّب على تلك الأعمال من أضرار. وقد أمرني جلالته بألاّ أغادر خليج الجزائر حتى يُستجاب لهذه المطالب جميعاً.

وتقبّلوا في الختام، أيها السيد العظيم، دعواتي لكم بالصحة والعافية، ورجائي بأن تعتبروني صديقاً مخلصاً لكم.

في اليوم التالي، وعلى الرغم من كل هذا العتاب والتهديد، عاد الداي يلحّ من جديد على قضية ميشين، قائلاً إن له بذمتنا أموالاً نرفض أن نؤدّيها إليه، فكان جواب السيد نائب الملك أنه يترك له المدعو ميشين الذي لا جدال في سوء طويّته، وأضاف القنصل قائلاً إنه سيمحو الرجل من سجلّ الرعايا الفرنسيين، وسيمنع عليه دخول البيت القنصليّ الفرنسي. غير أن الداي أجاب قائلاً إنه يفضل أن يترك لهم الرجل ليحملوه إلى فرنسا ويشنقوه هناك إن كانوا في مقابل ذلك سيرجعون إليه ماله، مضيفاً أنه يعتزم حجز ممتلكات السيد القنصل المتوفّى «دوران» الذي لولا توصيته لما أقدم هو على إقراض المدعو «ميشين» مالاً، وبخاصة الأكياس الثلاثمئة والخمسين من الصوف التي دفعها إليه على أن يشتري له بثمنها مدافع. وأضاف أخيراً قائلاً إنه سينتظر لبعض الوقت أن تبلغه ممتلكات القنصل أو ثمنها، فإذا لم يبلغه شيء استخلص أمواله من أول سفينة فرنسية تلقي مرساتها بالجزائر. فأجابه السيد بوكير قائلاً إنه على يقين من أنه لن يفعل ما يقوله، وإنه ليس يجهل كونَ الفرق بين صداقة ملك فرنسا وعداوته ليس بالشيء الذي يمكنه الاستهانة به، وأضاف قائلاً إنه لن يزيد على ما قاله شيئاً، وإنه سينسحب لساعته.

بعد نهاية اللقاء عاد السيد بوكير إلى سفينته، وأخبر السيد النائب بما وقع، فعاد هذا الأخير يكتب ثانية إلى الداي، وكانت هذه الرسالة:

الرسالة الثانية من السيد دو غواي تروان نائب الملك إلى داي الجزائر

حضرة السيد العظيم الجليل:

أؤكّد لسيادتكم أنّه إذا كان سيدي الملك قد اختار نائبه العسكري العام، الذي يتمتع بسمعةٍ لا غبار عليها، كي يكون رسولَه إليكم يخطب صداقتكم، ويطلب منكم في الآن نفسه تنفيذ ما جرى الاتفاق عليه بين جلالته وبين الجمهورية التي تترأسونها، فما ذلك إلاّ رغبةً من جلالته في إرضائكم،

وفي حملكم على الوفاء بكل تعهّداتكم. ولذلك؛ فرجاءً يا صاحب السعادة لا تعيروا أيّ اهتمام لما يحاول أعداؤكم وحسّادنا أن يزرعوه في نفسكم من الريبة والشك، إذ يؤّولون نواياكم الحسنة أسوأ تأويل. وإن من شأن حصافتكم وحسن حيطتكم أن تحملكم على الاستجابة إلى كل المطالب التي كلّفني بتقديمها إليكم بلسان السيد دي بوكير المفتش العام للجيش، وهي المطالب التي سيقدّم إليكم قنصل المملكة الفرنسية توضيحاتٍ بشأنها. والأمر المؤكّد هو أنكم إذا ما أرضيتم سيدي الملك فإن جلالته سيعمل على تعويض ما ضاع منكم حين أوليتم ثقتكم إلى الماكر المخادع المدعو «ميشين». وأستطيع على الأقل أن أؤكد لسعادتكم أنني في هذه الحال سأعمل ما في وسعي كي يُرَدَّ عَليكم مالُكم، ولن أدّخر جهداً في إرضائكم. وعلى العكس من ذلك؛ فإنكم إذا ما أبديتم مزيداً من المماطلة في تلبية مطالب جلالته فستضطرونني إلى الإقلاع بعد غد لأنقل الخبر إلى سيدي صاحب الجلالة وأخبره أن نواياكم ليست حسنة. وتقبّلوا في الختام دعواتي لكم بالصحة والعافية، ورجائي بأن تعتبروني صديقاً مخلصاً لكم.

توقيع دو غواي تروان.

في يوم السبت، السادس عشر من يونيو / حزيران 1731.

أما الأسباب التي دفعت السيد دو غواي إلى التلويح بإمكانية تعويض الداي عما ضاع منه فهي كالتالي: إذا ما لمس منا تراخياً في شأن الجنويين السبعة والعبدين فإن ذلك سيكون بلا شكٍّ داعياً لقراصنة الجمهورية إلى اقتراف مزيد من الجرائم على شواطئنا، مطمئنّين إلى الإفلات من المحاسبة. بل يبدو أن هيبة الملك وسلامة رعاياه تستدعيان إنفاق قليلٍ من المال عوض تعريض شواطئنا لمزيد من أعمال النهب والقرصنة، ناهيك عن أنّ الوعد مشروطٌ بإيفاء الداي بتعهُّداته وتلبية جميع مطالب الملك. وأياً كان الحالُ فإنّ الرسالة قد سُلِّمت إلى القنصل ليسلّمها إلى الداي يداً بيد. فلما كان الغد كتب القنصل إلى السيد دو غواي هذه الرسالة الجوابية:

رسالة السيد القنصل إلى السيد دو غواي

سيدي:

لقد قمت بلا إبطاء بتسليم الرسالة التي شرفتموني بتكليفي بتسليمها للداي يداً بيد، وقد تمت ترجمتُها له بكل أمانة من قِبل ترجمان الجالية بحضور ترجمانكم الخاص. وقد حرصتُ يا سيدي على اتباع تعليماتكم الرامية إلى الحصول على بُغيتنا بأيسر السبل، فأكدت له بصفتي صديقاً لا قنصلاً أنّ

خير وسيلة يضمن بها استرجاع المال الذي يَدَّعي أن ميشين قد اختلسه منه هي أن يقوم بلا إبطاء بإرجاع الملاحين السبعة الجنويين والعبدين الفرنسيّين الفارين من مراكش؛ لأنه إن لم يفعل ذلك فسيدفعكم إلى الكتابة بهذا الشأن إلى السيد «دي موربا». وقد بقي الداي وقتاً طويلاً يذرع المكان جيئة وذهاباً وهو يكرر لي الأعذار نفسها التي كان قد تذرَّع بها أمام السيد دي بونكير، مؤكداً تارة أنّ الأشخاص المعنّيين ليسوا تحت سلطته، وتارةً أخرى أنها قضيةٌ مضت فلا مجال إلى الخوض فيها من جديد. وقد ألححت عليه مذكّراً إيّاه بأنه الحاكم المطلق في البلاد، وأنه يكفيه أن يعطي أمره كي تجد القضيتان سبيلهما إلى الحل سريعاً، وأنه بذلك يضمن أخيراً ألاّ يضيع منه ثمن أصوافه. وسوف يخبركم ترجمانكم بكل التفاصيل، كما أرجو منكم أن تستزيدوا منه بهذا الشأن؛ لأني لا أجد الوقت للبسط في الحديث. وقد قلت للداي من بين ما قلته له إنه بتماديه في الرفض سيستجلب لنفسه غضب مولاي الملك، وإني أطمح في أن أكون ملاك السلام الذي تُختم القضية على يديه، وأخيراً أني لن أفارق مجلسي عنده حتى أحصل منه على جواب مُرضٍ. وقد حصلت فعلاً على ما أردت، إذ وعدني بأن يعقد ديوانه لهذا الغرض، وأن يعمل وسعه لإرضائكم. وقد خرجت من عنده يحدوني هذا الأمل، فسارعت في إرسال الموثق والترجمان ليخبراه بأسماء الأشخاص الذين يوجد الأسرى والعبيدُ تحت أيديهم، وهاهما قد عادا يخبراني الآن أنه بصدد التحرك، وأن هناك أملاً في أن يُطلَق سراح الجميع قريباً. وإني أتشرّف يا سيدي بأن أبلغك هذا الأمر، لكن من دون أن أجرؤ على تأكيده، لما تعلمونه من تَقَلُّبِ الرجل وخَفرِه للعهود والمواثيق. فقد رأيت منه خلال زيارتي له من آيات المودة والودّ ما أُفَضِّل أن أترك لغيري أن يرويه لكم، وما جعلني أتساءل إن كنت بإزاء الرجل ذاته الذي عرفته مِن ذي قبل. وأستطيع أن أقول إني قد التقيته في ساعةٍ سعدٍ. وقد ألمحت إليه من جهة أخرى بضرورة أن يأتيكم بجواب، أو أن يرسل إليكم ببعض الضباط الأتراك، لكنه رأى أن ذلك غير ضروري، وأن ما سأبلغكم إياه يكفي. وإني يا سيدي لأتشرَّف بأن أكون أخلص خدامكم.

«دي لان»

في هذا اليوم، السابع عشر من يونيو / حزيران 1731.

لمّا كان يوم الغد؛ الثامن عشر من الشهر، لبى الداي جميع ما كان مطلوباً منه.

وخلال مقامنا بالجزائر زرت المدينة وضواحيها، فوجدتها ليست بالشيء الذي يُذكَر، كما زرت منزلاً ريفياً كان في ملكية القنصل الراحل «دوران»، يبعد نحو فرسخين عن المدينة، وسط حقول بدت لي خصبة ومحروثة بشكل جيد. وقد تناولنا طعامنا وقضينا بعض الوقت هناك، حتى إذا كانت الساعة

الخامسة عصراً قَفَلنا راجعين. فلما وصلنا إلى باب المدينة وجدنا في ساحة صغيرة بإزائه نحو خمسين تركيا، أو لعلهم من الموريسكيّين، وقد أحاطوا بنا بذريعة الحصول على بعض الأزهار التي قطفناها من حديقة القنصل، لكني سرعان ما أدركت أنّ ما يريدونه في الواقع هو سرقة ما معنا من مناديل ومن علب تبغ، فحذّرت أصدقائي منهم، على الرغم من أن ذلك لم يمنعهم من النجاح في اختلاس منديل أحدنا. والحق أنهم يفعلون ذلك بخفة ومهارة لا تضاهيان، ولا شك في أنهم خلال مقامنا في المدينة نجحوا في اختلاس ما لا يقلّ عن خمسين منديلاً وعلبة تبغ.

لم يطل بي المقام في الجزائر بما يكفي للحصول على ما سأقدّمه الآن من معلومات، وإنما حصلت على ذلك من بعض الفرنسيّين الذين قضوا هاهنا من الزمن ما أتاح لهم أن يكونوا على بيّنة مما يجري في هذه الجمهورية، والذين جعلوا من صميم همّهم الإحاطة بالموضوع من جميع جوانبه.

دولة جمهورية الجزائر

تقع مملكة الجزائر بين الدرجتين 34 و37 عرضاً، وبين الدرجتين 18 و20 طولاً، وتمتدّ على طول نحو 160 فرسخاً من الشرق إلى الغرب، ونحو 90 فرسخاً من الشمال إلى الجنوب، لكن لمّا كانت حدود البلاد الجنوبية تقع في مناطق غير مأهولة فليس من الممكن القول أين تنتهي الحدود بالذات من هذه الجهة.

أراضي البلاد خصبة، وكان يمكن أن تكون مليئة حبوباً وحيوانات مائية وطيوراً وغير ذلك، لولا ما يلقاه أهل البلد من طغيان وسوء معاملة من الأتراك. وأهل البلد يُدعَون «الموريسكيين»، وهم أخلاط؛ بعضهم أسود البشرة كالزنوج، وبعضهم الآخر يكاد يكون أبيض لولا ما يُداخِل بشرته من سمرة خفيفة تجعلها أقرب إلى بشرة الخلاسين ذوي الدماء المختلطة. وهم أهل البلاد، ويمثّلون الغالبية العظمى من سكانها، أما الأتراك فيُعدُّون غرباء عنها، ولا يجاوز مجمل عددهم هناك ثمانية عشر ألف رجل، يقابل كل رجل منهم ألف من الموريسكيّين، لكنهم يسطون على البلاد سيطرة مطلقة، فلا يجرؤ أحد من أهلها أن يحرك ساكناً للتخلّص من هيمنتهم. وهم يُرَبَّون منذ الصغر على النظر إلى الأتراك بصفتهم بشراً من طينة أخرى غير طينتهم، ومعدن أرقى من معدنهم، وهو ما يجعل أتراك هذه البلاد أكثر وقاحة وسفهاً من نظرائهم في المشرق. فلا هم يتقنون عملاً ولا هم يعرفون مهنة يتعيّشون منها غير السلب والنهب، في حالٍ أشبه بحال القرصنة البحرية التي يمارسونها.

في مسألة السيادة في أرض الجزائر

كانت البلاد في أول الأمر خاضعة لسلطة الباب العالي، حيث كان السلطان يعيّن من لدنه باشا يحكمها باسمه، بيد أنّ بُعدَ الشقة كان دائماً يشجع الباشا على بسط سلطته الخاصة على البلاد، فيحكمها بيدٍ من حديد، ولا يتورّع عن ارتكاب الفظائع في حقّ أهلها. ثم أتى زمنٌ على الأتراك المستقرّين هاهنا فقرّروا أن ينتخبوا من بينهم رجلاً يحكمهم يطلقون عليه لقب الداي، على ألاّ يكون للباشا المبعوث من قبل السلطان العثماني غير سلطة رمزية، وهذا هو المعمول به حتى اليوم. وعلى الرغم من أن الدولة تحمل اسم الجمهورية فإن الحكم فيها مطلق أو يكاد، فهي بذلك أقرب إلى النظام الملكي.

في نمط الحكم، وفي الداي خصوصاً

يُنتخب الداي بأغلبية الأصوات، أو قُل بأصوات الرعاع الذين يكوّنون الأغلبية من الأتراك، وهو يحكم مدى الحياة، ويتصرّف في أموال الدولة كما يشاء، ويقرر الحرب والسلام، ويتحكّم في حركات الجيش، ويَؤُول إليه الأمر حتى في الشؤون المدنية والجنائية. فإذا جمع مجلسه المكوّن من الأعيان فإنما يفعل ذلك مراعاة للمظاهر، أو لتبرير ما يأتيه من أفعال. أما أعضاء المجلس فلا يجرؤ أحد منهم على مناقشة ما يقوله الداي، بل حتى على إبداء الموافقة على ما يتخذه من قرارات!. فهو البادئ بالكلام والمنهي له، وهو الباسط للمقدمات والمستخلِص للنتائج، حتى إذا انتهى سمعتَهم يقولون: «أنت أبونا ومولانا وسيدنا، وأنت أدرى منا بما فيه الخير لنا.. فإن أحسنتَ فلك الحسنى، وإن أسأت فستلقى جزاءك».

بيد أن الداي يبقى رغم هذه السلطة المطلقة معرَّضاً للموت في كل حين. فما إن يغضب عليه الشعب لعدم أدائه أجور الجند أو لأي سبب تافه آخر حتى تثور عليه الطوائف فتحاصر قصره وتقتله في مشهد متكرِّر إلى درجة أنهم لا يذكرون إلاّ دايا واحداً مات في فراشه، في حين تم اغتيال الآخرين جميعاً بعد أربع سنين أو خمس من الحكم في العادة، وبعد أربعة أيام أو خمسة في بعض الأحيان. وقد امتد حكم الداي الحالي سبع سنوات متواصلة، وهو ما يعدّ بمعايير هذه البلاد زمناً طويلاً، ولا سيما أنه استطاع الإفلات ثلاث مرات من مصير سابقيه الذين قُتِل آخرهم في أوائل أبريل / نيسان 1724 بطلقات بندقية وهو عائد من الميناء. ويُخشى ألاّ يطول الزمن بالداي الحالي فتختطفه بدوره يدُ المنون على الرغم من كلّ ما يتّخذه من احتياطات.

وقد جرت العادة ألاّ يهتم الداي الجديد بالانتقام من قاتلي سابقه، مما يترك الحبل على الغارب في

هذا المجال.

ويعمل تحت سلطة الداي ثلاثة بايات، هم في الآن ذاته حكام ولايات وقادة للجيش، تحت يد كلّ منهم معسكر من أربعة آلاف رجل، يتمركز أحدهم في شرق المملكة، والآخر في غربها، والثالث في الجنوب. والداي هو من يُعَيِّنهم وهم جميعاً يعملون تحت إمرته، لكنّ كلاً منهم يحكم منطقته حكماً مطلقاً. وتتمثل مهمتهم الأساسية في التجوال في الأرياف مرة كلّ سنة وجبي الأموال من الناس بمقادير يفرضونها، فلا يستطيع أحد لحكمهم ردّاً. وتمثّل هذه الجبايات أهم المصادر المالية للدولة. والباي الذي يجلب أكبر قدر من المال يلقى أفضل معاملة من الداي، ويحظى منه بالتقدير والاحترام.

في أحوال الجيش

تتمثل القوات الرئيسة في الدولة في ثلاثة عشر ألف إلى أربعة عشر ألف جندي نظامي، يتمركز غالبهم في العاصمة الجزائر، حيث ينطلقون إلى شتى أنحاء البلاد لإخماد الثورات وفرض النظام. ويقيم هؤلاء الجنود في ثكنات في المدينة، في مساكن أنظف من مساكن أفراد حرسنا الوطني، حيث يُنزَلون غرفاً مفروشة بالبُسُط تُقِلّ كلٌّ منها سبعةَ أفراد إلى ثمانية، يقف على خدمتهم ساعٍ خاصٌّ يقوم على طعامهم. أما أسلحتهم ففي حال جيدة، وأغلبها مزين بالفضة أو الأصداف أو العاج، والجنود جميعاً، حتى أدناهم رتبةً، يتنافسون في ذلك تنافساً. وأمّا أماكن نومهم ففي مرتَفَعٍ أشبه بالشرفة يرتقون إليه سلماً صغيراً. وهم لا يتدرّبون جماعةً تدريباً منظّماً، بل ينطلق كل منهم وقتما شاء، فيشرع في التدرّب على الرماية. وعلى كلٍّ منهم توفير كسوته وسلاحه المتكون من بندقية، ومسدسين، وخنجرين، وسيف، وبلطة، وعبوة بارود، وسروال من الجوخ، وسترتين قصيرتين من أي لون شاء. أما رؤوسهم فحاسرةٌ، وأما السيقان فعارية، إلاّ قِلّة منهم يلبسون جوارب.

أجور الجنود

يتلقى الجنود أجورهم كل شهرين قمريّين، وهي تتراوح ما بين أربعين قرشاً حدّاً أدنى، وخمسة وعشرين جنيهاً حداً أقصى، وهو أجر لا يبلغه الداي نفسه، إذ يُقَيّدُ في سجلات الدولة بصفته جندياً بسيطاً. إضافة إلى ذلك فإنهم يتلقّون علاوات وترقيات في المناسبات المختلفة؛ من المعارك، إلى الأفراح في بيت الداي، إلى الاستقبالات الرسمية، وغير ذلك من المناسبات التي تقع أربع مرات إلى خمساً في كل سنة، فلا يأتي على الجندي وقتٌ طويل في الترقي من أدنى الرتب إلى أعلاها.

ويتلقّى الجندي الواحد أربعة أرغفة من الخبز في اليوم الواحد، يزن كل منها نحو رطل تقريباً. أما إذا كان متزوّجاً فلا يوفّرون له مسكناً، ولا يُجرون عليه طعاماً، والسبب في ذلك أنّ الدولة لا ترث المتزوجين مثلما ترث العزاب، ولذلك لا ترى أن عليها إطعامهم ولا إيواءهم. وللأتراك جميعهم الحقّ في الانتساب إلى الجندية، لا يملك الداي أن يمنعهم منها، ولذلك فلا تكاد تجد فيهم رجلاً إلاّ وهو منتسب إليها.

في أحوال الجيش أثناء الحملات العسكرية

حين يتحرّك الجيش فإنّ العبيد أو الموريسكيين هم من يحمل الأمتعة ويسهر على إعداد الطعام. ويتألّف الجيش من كتائب من أربعين رجلاً، على رأس كل منها قائدٌ برتبة قبطان، ومعه ملازم، ورئيس للطباخين، ورقيب.

أما الفرسان فمسلّحون بالرماح، والدولة هي التي تؤمّن لهم الخيول، بمعنى أنها تعطي لكل فارس جواداً، على أن يهتم الفارس بعد ذلك بعلف الجواد، وهو ما لا يكاد يكلّفه شيئاً بحكم أنه يأخذ ما يشاء من الموريسكيين.

إضافة إلى الجنود النظاميين الذين لا يكونون إلاّ أتراكاً يَعمدُ القادة إلى ضمّ من استطاعوا من الموريسكيين إليهم أثناء الحملات، فيؤلفون منهم جيشاً من عشرين إلى ثلاثين ألف راجِل، لا يختلطون بالجيش النظامي أبداً، ولا يتلقّون عن خدمتهم أجراً غير الغذاء.

يتألف مخيم الجيش من عدد من الخيام تُظِلُّ كلُّ خيمة منها نحو عشرين رجلاً. ويرافق كلَّ مخيم أو كلَّ جيش رجلٌ يدعى «الآغا»، وهو بمنزلة قاضٍ يعيّنه الداي للفصل في ما يرتكبه الجنود من مخالفات، ومعاقبة المذنب منهم، وكذلك تقديم النصح والمشورة للقادة. ولا يستطيع هؤلاء الإقدام على أمر من دون مشورته، ولا حتى معاقبة جنودهم من دون موافقته. فالسلطة المطلقة على الجيش هي للداي، لكنّ الآغا يختصّ بالسلطة القضائية والمدنيّة، ويقوم على مصاريف الجيش من غذاء وأعلاف وذخيرة وغير ذلك.

وليس لهم نظام معروفٌ في السير، بل يسير كل قائد بجيشه كما يشاء. وهم في أثناء المسير يجعلون أمتعتهم في الوسط، وتتقدّمهم كتيبة كبيرة من المشاة، وعلى الجناحين كتيبتان من الفرسان، وفي المؤخرة كتيبتان أخريان من الفرسان، وخلفهما كتيبة صغيرة من المشاة. أما في أثناء القتال فيجعلون المشاة في الوسط والخيالة على الجناحين.

في شأن القوات البحرية

تُعدّ القوات البحرية في هذا البلد كبيرة بالقياس إلى باقي القوات وإلى ما يلاقونه من صعوبة في بناء السفن وصيانتها، فهم لا يكادون يجدون في بلدهم ما يكفي من الخشب لبناء السفن ولا لصنع الصواري، وليس عندهم قنب ولا حبال ولا حديد ولا قماش ولا زفت ولا أيّ من المقومات اللازمة لإنزال السفن في البحر وجريانها فيه، غير أنّ ذلك لا يمنع من أنّ لديهم في الميناء تسعة عشر أو عشرين مركباً حربياً مجهّزاً، تتراوح حمولتها ما بين عشرين وستين مدفعاً، ثلثها على الأقل يذرع البحار باستمرار، من دون احتساب القوارب والزوارق الحربية الأخرى.

بيد أن الدولة لا تملك من هذه السفن إلاّ سفينة واحدة فقط، أما الأخريات فهي ملك أفراد يجهزونها للإبحار وقتما أرادوا، ويذهبون بها أينما عنّ لهم، شريطة طلب الإذن في ذلك من الداي الذي لا يبخل عليهم به أبداً لِما يعودون به من عوائد وغنائم.

وليس عندهم محلات لبيع تجهيزات السفن، بل يتدبّر كل مالكِ سفينةٍ أمرَه كما استطاع، وغالب اعتمادهم في ذلك على ما يأسرونه من سفن في البحر، إذ يتمتّعون بمهارة كبيرة في انتزاع ما ينفعهم من السفن التي تقع في أيديهم، من أخشاب وحديد وحبال وأشرعة وغير ذلك، يصطنعون منها سفناً جديدة، أو يجهزون بها سفنهم.

حين يكون أحد الربابنة مقبلاً على الإبحار فإنّ شركاءه وأصدقاءه يبعثون إليه بما استطاعوا من العبيد لمساعدته في تجهيز سفينته وإعدادها. وهم لا يحتاجون في ذلك إلى زمن طويل؛ لأن مؤونتهم وذخيرتهم تكون محدودة، وليس لهم في الغالب إلاّ حبل واحد لا يملكون ما يستعيضون به عنه إن هو ضاع أو انقطع. وقبل الإقلاع ببضعة أيام يطلق قائد السفينة طلقة مدفع يعلن بها عن قرب رَفعِه للمراسي، فيقصد السفينة كلُّ من يريد ركوبها، يستوي في ذلك الأتراك والموريسكيون، فلا تتوزَّع المهام بينهم إلاّ عندما يصبحون في عرض البحر، وهو ما يجعل قوة السفينة الواحدة تختلف بين رحلة وأخرى.

يحمل كلّ تركي بندقية وسيفاً وذخيرته من الرصاص والبارود. فإذا وقعت في يدهم غنيمة اقتسموها بحسب ما غنم كلّ واحد منهم، فترى العبيد يغنمون ما استطاعوا لحساب سيدهم. وأهم الضباط الذين تحملهم السفينة هم رئيس الملاحين، و«الرايس» أو قائد السفينة، ومساعده، والكاتب، وضباط المدفعية، والطباخ أو المدبِّر، وبعض الضباط المساعدين. إضافة إلى هؤلاء هناك الآغا الذي

يعيّنه الداي، والذي لا يستطيع قائد السفينة الإقدام على شيء من دون إذنه.

ويستمرّ الإبحار عندهم من أربعين يوماً إلى شهرين، لا يكادون يرسون خلالها على برٍّ أبداً، فيجوسون خلال البحار قبالة سردينيا ونابولي وجنوة وتوسكانيا وإسبانيا، يستوي عندهم البحر الأبيض والبحر المحيط، فتجدهم في مياه البرتغال وجزر الكناري وماديرا وجزر الأصور وحتى شواطئ «تير نوف» (الأراضي الجديدة) و«تيكسل» في ما وراء البحر المحيط. وهم لا يرفعون علماً على سفنهم، فإذا فعلوا جعلوه مبهماً لا يَبين.

السفن المأسورة

إذا أسر القائد سفينةً جرَّها وراءه إذا كانت تستحقّ ذلك، وإلاّ فإنه يأخذ منها ما ينفعه ثم يغرقها. حتى إذا عاد من رحلته انطلق إلى الداي يرفع إليه تقريراً بما حصل، وبمقدار الغنيمة التي جاء بها، فيقتطع الداي لنفسه في العادة ثُمن الأسرى والثُمن من الغنيمة كذلك. بعد ذلك يبيع أصحاب السفينة ما بقي من الأسرى والغنائم، فيقتسم البحارة والضباط والجنود نصف الغنيمة، ويقتسم مالكو السفينة نصفها الآخر، وذلك بحسب ما جرت به العادة عندهم؛ حيث يستولي حاكم الميناء بحسب قانون خاص على كل التجهيزات والأشرعة الموجودة في مؤخرة السفينة المأسورة، ويُترك ما في مقدمتها للجنود أو «الطائفة»، وهو ما لا يمثل شيئاً كثيراً، إذ إنّ ربان السفينة غالباً ما يعمل على الاستيلاء على كل ما في هذا الجانب وهو في البحر، فلا يبقى هناك غير العبيد الذين يختلف ثمنهم باختلاف سنّ كل منهم وصحته ومؤهلاته وغير ذلك. وهم لا يُباعُون مباشرة، بل يُنادى عليهم ثانية بعد البيع الأول ليباعوا بسعر أعلى، والفارق بين السعرين يذهب إلى بيت مال الجمهورية.

أمّا إذا ضاعت سفينة في البحر فإنّ الداي يُرغم مالكيها على بناء سفينة جديدة تحلّ محلّها، بدعوى أنه لا غنىً للجمهورية عنها.

في الدِّين المتَّبع في البلاد

الدِّين الرسميّ هو الشريعة المحمدية، والجميع أتراكاً ومورسكيين يعتنقونها، وإن اختلفوا في طريقتهم في ذلك، وكلٌّ منهم يعتقد بأنّ مذهبه خير من مذهب صاحبه. بيد أن ممارسة الشعائر الدينية يظل أمراً حراً لأصحاب الديانات الأخرى جميعاً، بل إن الأتراك يحرصون على أن يلتزم أصحاب كلّ ديانة بتعاليم ديانتهم.

رجال الدولة

رجال الدولة الكبار هم الداي، والباشا مبعوث السلطان، وآغا الجيش، وهو أقدم الجنود خدمةً، ويتمّ تكريمه على رأس شهرين قمريّين، حيث يُحتفى به احتفاءً كبيراً، ويتلقّى مكافأة قدرها مائتا ريال. وبعد هذين الشهرين ينسحب الآغا مُخلياً المكان لخَلَفه، ويتقاعد من الخدمة نهائياً، فلا يعودون يكلّفونه عملاً، ويبقى متمتّعاً بأجرته العادية التي تبلغ خمسة وعشرين جنيهاً.

القاضي

القاضي هو الذي يَفصل في الشؤون الدينية، وهو الذي يُشرف على توثيق العقود وغيرها من المعاملات المكتوبة التي تُعدّ شيئاً نادراً في هذه البلاد. وهو تابع للداي، يأتمر بأمره، علماً بأن هذا الأخير لا يتدخّل في الشؤون الدينية. وهناك أيضا «الشُّيَّاع»، وهو الذي يُنتظر أن يحلّ محلَّ الآغا القائم. أما الكتاب الأربعة الكبار فهم بمثابة وزراء، يتولّون أمر خزينة الجمهورية، وكلَّ الشؤون الخارجية، والقضايا ذات الطبيعة الاستثنائية. والدَّاي هو من يعيِّنهم، ويكونون على يمينه في المجلس، يسجّلون أوامره، ويُسدون إليه النصح والمشورة عند طلبها منهم فقط، وهو ما لا يكاد يفعله إلاّ على انفراد. وهناك أخيراً نحوٌ من تسعين كاتباً صغيراً يعملون تحت إمرة الأربعة الكبار، وليس لهم من مهمّة محدّدة غير ما يكلّفهم به هؤلاء كلّ يوم.

البايات

البايات هم قادة الجيش كما ذكرت ذلك آنفاً، وهم خاضعون لسلطة الداي، لكنّهم يتمتّعون في محلاتهم الخاصة بسلطة مطلقة كسلطته.

كبير خَزَنَة الدولة

الخزناجي آغا، أو كبير الخَزَنة، هو الذي يشرف على وضع الأموال في الخزينة وعلى خروجها منها، ويقيّد ذلك كلّه في سجلات. فلا يدخل مال ولا يخرج إلاّ بإذنه، وهو في أثناء ذلك لا يملك من الأمر شيئاً، بل لا يملك أن يستخرج من المال شيئاً لنفسه.

وهناك أيضاً «البيتماجي»، وهو محصِّل الأموال الذي يتسلَّم باسم الداي كلَّ الأموال العائدة إلى الدولة، ويستولي على أموال كلّ الأتراك الذين يموتون من دون أن يخلّفوا ورثة، وكذلك على أموال

من يُؤخَذ منهم أسرى، كما أنه هو من يسلّم التصاريح بالدّفن، فلا يُدفَن ميتٌ إلاّ بإذنه.

أما «خوجة الخيل» فهو صاحب صندوق بيت المال.

وأما رئيس الطباخين فهو من أهم رجالات الدولة؛ إذ يتمتع بثقة مطلقة من قبل الداي، ويقوم على مائدته وعلى تدبير شؤون القصر الداخلية.

وأما «الآغاباشي» و«البلكباشي» و«الأدوباشي» فهُم ضباط الجيش، وليسوا في الواقع سوى قادة كتائب مشاة يتمتّعون ببعض الأقدمية في الخدمة.

وأما «الآغا سفير» فهم قادة كتائب الفرسان.

وأما «السقايدية» فهم السقّاؤون الذين يعمل تحت إمرتهم عدد من الناس المكلفين بتزويد أهل المحلة بالماء.

وفرقة «الشُّواش» تتكوّن من اثني عشر رجلاً من أقوى الأتراك بنية، وتتمثل مهمتهم الأساس في توقيف أو معاقبة كلّ من يأمر الداي بالقبض عليه أو بمعاقبته. ويرتدي أفراد هذه الفرقة زياً بلون أخضر وقبعة مميَّزة، ولا يحملون بنادق ولا خناجر ولا أيّ نوع آخر من السلاح، لكنهم يفلحون على الرغم من ذلك في التغلب وحدهم على الخارجين على القانون، ولم يُسمع يوماً عن أحد أنه عصاهم أو حاول مقاومتهم.

وأما «الفيكيلارجي» أو «الصول»[1] فهم جنود قدامى، يُكلّفون بإنجاز بعض المهمات الخاصة، وهم مسلحون برماح من النحاس وأقواس يمسكونها بشمالهم.

والقياد: وهم القابضون ومحصلو الضرائب والمكوس.

والقبطان باشا: هو قائد القوات البحرية، ويعيَّن من قبل الداي، ولا يتمتع بسلطةٍ إلا إذا كان متمتعاً بثقة الداي والضباط البحريين.

والأميرال المساعد: هو الأقدم من بين قادة السفن.

والرايس: هو قائد السفينة، وتكون السفينة ملكه، أو يقتسمها معه شركاء، ولا يتميّز رايس عن آخر إلاّ بأقدمية كلّ منهما على صاحبه.

---

(1) لم نقف في ما بين أيدينا من المراجع على ما يقابل هذه التسمية بالعربية، اللهم إلا رتبة «أسكي بولداش»، التي تعني «الجندي القديم»، وهي مرتبة يبلغها الجندي بعد زمن معين من الخدمة (المترجم).

وأما «رايس المرسى» فهو حاكم الميناء، وإليه يعود الفصل في كل ما يقع داخله، ويتمتع بسلطة خاصة تتيح له أن يصدر الأحكام، وأن يشرف على تنفيذها فوراً.

القضاء

تعود القضايا المدنية والجنائية كلّها إلى الداي أو تكاد، كما تقع تحت سيطرته قوى الأمن وكلّ ما يتعلق بها، وليس للآخرين من سلطة في ذلك جميعه إلا ما يتركه الداي لهم.

وقواعد القضاء هنا بسيطة وموجزة جداً؛ فالقضايا لا تُكتب ولا تسجل، ولا يتم الاعتماد في حَسمِها على الوثائق بل على نتائج التحقيقات وأقوال الشهود؛ لأن الدائنين قليلاً ما يسجلون أوراقاً مع مدينيهم. فإذا ثبتت الإدانة في حقّ متّهم ضربوه في الحين ثلاثمئة ضربة عصا، فإن هو اعترف حُكم عليه بأداء ضعف المبلغ المتقاضى في شأنه، ويُمهل لتدبير ذلك إذا كان له عذر مقبول. والمهلة تكون قصيرة جداً، فإذا انقضت ولم يَفِ بما عليه حُجزت ممتلكاتُه، وبيع منها بالمزاد العلني ما يكفي للوفاء بدينه. وإني لا أخال جيراننا يحبّون في مثل هذه الظروف أن يقام لهم حساب في هذا البلد[1].

وأما السرقة فعقابها عندهم الموت، لا يعرفون في ذلك رحمة ولا شفقة، مهما قلّ شأن المسروق. وأما الجرائم الأخلاقية فلا تلقى عقاباً إلا إذا نجم عنها فضيحة ولاكتها الألسن، لأنهم يرون أن الله وحده هو الكفيل بحساب من يرتكب مثل تلك الجرائم.

ويتم الفصل في كل القضايا فوراً، مدنيةً كانت أم جنائية، من دون نقاش ولا أخذٍ ولا رَدٍّ، ويتمّ تنفيذ الأحكام بلا إبطاء.

العقوبات

تتراوح أكثر العقوبات شيوعاً بين الجَلْدِ، والحرق، والخوزقة، والسَّحْل في الطرقات خلف بغل، وصلب المجرمين أحياء على خطافات من الحديد عند مدخل المدينة.

ولا يمكن معاقبة الأتراك على رؤوس الملأ، بل يُعقابون في داخل قصر الداي، فلا يعاقَب أمام الناس إلاّ الموريسكيون والنصارى واليهود.

---

(1) هذه العبارة الأخيرة وردت منفصلة عن السياق، ولا شك في أنها جاءت من باب التعريض بجيراني لفرنسا تحسب أنهم الإنجليز، نظراً إلى العداوة القائمة آنذاك بين البلدين (المترجم).

ليس من السهل تحديد مداخيل الجمهورية بدقّة؛ لأن القسم الأعظم منها يأتي من الغنائم المحصّلة من عمليات الاختطاف والقرصنة في البر وفي البحر.

وفي ما يلي لائحة بما استطعنا التوصل إلى معرفته، علماً بأن هذه المعلومات ليست بالضرورة دقيقةً وافية:

يجلب محصلو الضرائب الذين ذكرناهم آنفاً إلى صندوق الدولة:

نحو 250,000 قرش إشبيلي من ضرائب الموريسكيين.

50,000 قرش من أملاك الدولة.

12,000 قرش من عائدات الأسواق والحفلات التي تقام بها.

12,000 قرش من ضرائب اليهود.

50,000 قرش من عائدات الضرائب والمكوس على دخول السلع وخروجها.

20,000 قرش من عائدات الضرائب على البساتين والمحلات التجارية.

12,000 قرش من عائدات الجلود والشمع.

6,000 قرش من أصحاب الصنائع.

6,000 قرش من ضيعة الملح.

10,000 قرش من عائدات الحصن.

فيكون المجموع 1,280,000 مليوناً وثلاثمئة ألف قرش.

يضاف إلى ذلك:

نحو 4,000 قرش من عائدات الحقوق الأخرى المتنوعة.

50,000 قرش من مواريث الأتراك والموريسكيين الذين لا يتركون ورثة.

5,000 قرش من فداءات الأسرى.

200,000 قرش تقريباً من أعمال القرصنة.

فيكون المجموع 678000 قرش.

هذا من دون احتساب العائدات العينيّة من قمح وشعير وخيل وبغال وغير ذلك مما يُحتاج إليه لتموين الجيش وتزويد قصر الداي بحاجته من المؤونة، ومن دون احتساب للهدايا الكثيرة التي يقدّمها التجار النصارى واليهود والموريسكيون.

وأما المصاريف العادية فتمثّل في ما يلي:

360,000 قرش أجوراً للجند.

60,000 قرش للذخيرة ولصيانة المدن.

فيكون المجموع 420,000 قرش، من دون احتساب المصاريف الاستثنائية.

والأتراك وأبناء الأتراك جميعهم أحرار لا يمكن استعبادهم، أما النصارى فمن أُمسِك منهم والسلاح في يده يصبح عبداً ويباع كما وصفنا ذلك آنفاً. ويخصَّص عددٌ منهم للداي، فيكونون في خدمة القصر، حيث يكلَّفون ببعض الأشغال العمومية، أو يوزَّعون على السجون والثكنات العسكرية ليقوموا بالخدمة فيها. أمّا إذا ركبوا البحر للقرصنة فإنّ الداي يستحوذ على ثلثي ما يأتون به، ويترك لهم الثلث الباقي في قسمةٍ تُذكِّر بحكاية المحارة المقسمة بين القاضي والمتقاضين.

يتمّ إلحاق بعض الأسرى كذلك بالزوارق الحربية، حيث يكلَّفون بالمجاديف، وحينها فإنّ الدولة لا تقدم لهم أيّ أجرة، بل يعتمدون في معيشتهم على المتاجر والمطاعم التي يُسمح لهم بامتلاكها على ظهر السفينة، والتي يؤدّون عنها أيضاً ضريبة إلى القائد.

كما يصبح بعضهم عبداً لدى الخواص، فيعيشون في هناء أو شقاء بحسب مزاج السيد الذي يملك أمر كلّ منهم؛ فقد يصيب الواحدُ منهم من الحظوة في بيت سيده ما يجعله أعلى سلطة منه أو يكاد، ويقع آخر في يد سيدٍ يسومه سوءَ العذاب. ومهمة العبد الأساس هي تنفيذ ما يطلبه منه سيده الذي يملكه جسداً وروحاً، ويستطيع قتله أو إحياءه، لا يخشى في ذلك مُسائِلاً ولا رقيباً. وأمّا أسوأ الأسرى حظاً فهم الذين يقعون في أيدي تجار الرقيق من الموريسكيين الذين لا هَمَّ لهم سوى تحقيق أقصى قدر ممكن من الربح، والذين لا يتورّعون عن إساءة معاملة من يتوسّمون فيه الثراء من الأسرى لدفعه إلى افتداء نفسه منهم.

فداء الأسرى

القائمون على افتداء الأسرى هم رهبان البعثات التبشيرية، وكذلك بعض الخواص. ويأتي الرهبان في العادة مرةً كل عام أو عامين بحسب ما يتوافر لهم من مال، فإذا نزلوا بالبلاد تَعيَّن عليهم دفعُ ثلاثةٍ في المئة من أموالهم إلى الداي، ثم يشرعون في استقصاء آثار الأسرى المسيحيين، مع الحرص على عدم الإفصاح عن هويات الأسرى الذين لهم شأن. وقد يجدون أنفسهم مضطرين إلى استخلاص عبد منهم من الزوارق الحربية ومن أيدي الباشا والكتّاب الكبار قبل أن يشرعوا في مفاوضة المالكين الخواصّ لافتداء من في أيديهم منهم. وعلاوة على الثمن المتّفق عليه ينبغي أداء ضريبة خاصة عن كل عبد محرَّر تبلغ ما يفوق ستين قرشاً، والشيء نفسه ينطبق على الأسرى الذين يفتديهم خواص.

مدينة الجزائر، وخليجها، وميناؤها

تقع مدينة الجزائر على ساحل البحر المتوسط على خط العرض 36 و49 دقيقة شمالاً، وخط الطول 24 و30 دقيقة.

والوصول إلى الساحل سهلٌ نسبياً، حيث تظهر الأراضي للعين من بعيد. ويدخل الداخل إلى الخليج من جهة الشمال تحت ريح شرقية، لكن إذا كانت الريح شمالية شرقية أو شمالية غربية فإنها تأتي معترضةً فيكدُّ الملاحون في الدخول؛ لأنّ الريح والماء يقتحمان الخليج في وقت واحد. بل هناك في بعض الأحيان خطر التعرّضِ لعواصف بحرية عند حدوث اضطراب جوي، وكذلك خطر المراسي البحرية الغارقة في تلك المياه بأعداد كبيرة، والتي تقطع حبال المراكب التي تلقي مراسيها في الخليج. وتُلقَى المراسي على بعد نحو فرسخ من المدينة، في مياه عمقها بين ثلاثين وأربعين باعاً على قاعٍ من طين. ويحيط بالخليج رأسان من الأرض، هما: رأس «كاسين» ورأس «ماتيفو»، والمدينة في أقصى غرب الخليج، تكاد تكون جنوب رأس «كاسين». والناظر إليها من الخليج يراها على هيئة شراع مربّع أبيض، وهي تمضي في ارتفاع مع الهضبة، فتبدو المنازل كالمدارج في تعالي بعضها عن بعض. ومدار المدينة بما فيها الأبراج قد يبلغ فرسخاً واحداً.

وميناء المدينة عبارة عن صخرة قائمة في البحر، تم وَصلُها باليابسة برصيفٍ يبلغ طوله نحو خمسمئة خطوة يمتد من ناحية الشرق إلى ناحية الغرب، وتُحدِث ريح الشمال عند هبوبها أمواجاً عاتية في الميناء يعاني منها أصحابُ السفن أشدّ العناء. وفي منتهى الرصيف تقوم منارة وبرج حديث البناء مجهزٌ بنحو أربعين مدفعاً وله قبة جيدة الاستدارة.

وهناك أربعة حصون أخرى تحيط بالمدينة، وتضطلع بحمايتها، هي: حصن «الصخرة» ناحية الجنوب، وحصن «باب الواد» في الشمال، وحصنان آخران في داخل الأراضي، هما: حصن «النجمة» وحصن «الإمبراطور».

وتحيط بالمدينة أبراج قديمة مربّعة لا تزيد ارتفاعاً عن الأسوار، مع خنادق صغيرة لا توفر دفاعاً ذا بال، وهناك برجان صغيران آخران من اثني عشر أو أربعة عشر مدفعاً على الخليج شمال المدينة من جهة رأس «كاسين».

عن كميات المدافع لدى الجمهورية

يزعم الجزائريون أنّهم يمتلكون في داخل الأبراج ما مجموعه أربعمئة قطعة مدفعية حول المدينة، وهو الأمر الذي ليس من السهل التأكّد منه بحكم أنهم لا يسمحون لأحد بدخول تلك الأبراج، لكن لا يبدو أنّ هناك ما يدلّ على وجود هذا العدد كله من المدافع.

الشوارع والمنازل

الشوارع في المدينة ضيّقة متعرّجة، والمباني كلّها بأسطح مفتوحة تكاد تتلاقى في الأعلى لفرط تَقَارُبها، حتى لَيستطيع المرء الانتقال بكل سهولة ويُسر من سطح إلى آخر. وقلّما تجد منزلاً بغير باحة. تتلقّى الغرف ضوء الشمس من كُوّى صغيرة تنفتح عليها، ونادراً ما تجد لتلك الغرف نوافذ على الخارج. وليس في مدينة الجزائر حدائق ولا ساحات عمومية، غير أنها مدينة آهلة يقطنها ما لا يقل عن 150,000 ساكن، ليس بينهم عُشْر هذا العدد من الأتراك.

الغرباء القاطنون في البلد

هناك القنصل الفرنسيّ وأسرته، وموثق القنصلية، ومواطنان فرنسيان اثنان يقيمان هناك، إضافة إلى القائم بشؤون «الشركة الأفريقية».

ويَفصِل القنصلُ الفرنسيّ في كل ما يشجُر بين التجار الفرنسيين من نزاعات، بل حتى فيما يشجر بين غيرهم من المنتمين إلى أمم حرّة تتمتع بالحماية الفرنسية، كما يهتمّ بكافة شؤون المملكة والجالية.

وهناك أيضاً بيت إنجلترا الذي يقيم به قنصل هذه البلاد، وليس فيه من الناس أكثر مما في بيت فرنسا.

ونجد في المدينة كذلك دير المبعوث الرسوليّ، حيث يقيم ثلاثة من الرهبان، وقد أسّسته السيدة «ديغويون» بغرض تقديم العون للأسرى من المسيحيين.

كما يوجد هناك «بيت الشفاء» الذي أسّسه راهب كان متلقّي اعترافات «يوهان» ملك النمسا، وقد وقع أسيراً في يد الجزائريين فأرسل إليه الملك بمبلغ كبير من المال ليفتدي به نفسه، لكنّه أنفقه في شراء منزل جهّزه بستة عشر سريراً للمرضى من بين الأسرى النصارى. وقد مات هذا الرجل الطيّب في الأسر بعد ذلك بسنوات قليلة، واليوم يتمتّع البيت بدخل يبلغ ألفي قرش، ويُديره رهبان إسبان، وهو تحت حماية القنصل الإنجليزي.

وإضافة إلى هؤلاء هناك نحو خمسة آلاف أسرة يهودية، يشتغل جلُّهم في خدمة الأتراك، ويقومون على مجمل تجارة البلد تقريباً. وهم يؤدّون الضرائب إلى الدولة، ويتعرّضون لأشكال من العسف كلما كانت الدولة في حاجة إلى المال.

لا يُقيم المقيمون الغرباء صلات إلاّ فيما بينهم، مما يجعل حياتهم مملّة رتيبة، وكثيراً ما يتعرّضون للسّبّ والظلم بسبب مسائل تتعلق بالبلاد التي ينحدرون منها، مما يدفعهم إلى التخفي في بعض الأحيان.

التجارة

لا يحلّ بهذا البلد كثير من السفن الفرنسية؛ لأن الفرنسيين لا يُسمح لهم ببيع الأسلحة والذخائر، على عكس الإنجليز الذين تمثل تجارة السلاح غالب نشاطهم التجاري هناك. أما باقي الحركة التجارية فيتمثل في حمولة السفن التي يذهب بها الأتراك للمتاجرة في المشرق، مما لا يمثل شيئاً كثيراً. ويُمنع إخراج المواد الاستهلاكية من البلاد، أما غيرها من المواد فتؤدّى عنه ضريبةٌ مقدارُها خمسةٌ في المئة عند الدخول واثنان ونصف في المئة عند الخروج. ويورّد التجار إلى البلاد قليلاً جداً من الورق والجوخ والعقاقير والتوابل، ويشترون من هناك بعض ريش النعام والصمغ والجلود والصوف. لكن ليس هناك من ربح يمكن تحقيقه، نظراً إلى قلة ما بيد أهل البلد من مال، وكذلك بسبب تكاليف النقل وانعدام الأمان في عمليات البيع والشراء؛ فالتجارة كلها تمرُّ من خلال اليهود الذين يغشّون في البيع، فيدفعون المتعامل معهم في غالب الأحيان إلى الإفلاس.

والضرائب المفروضة على السفن الفرنسية والبريطانية سيّان، باستثناء الضريبة على الحمولة التي يؤديها الفرنسيون دون الإنجليز.

عملة البلاد

العملة الأكثر انتشاراً بين الناس في الجزائر هي القروش الخفيفة من قيمة جنيهين وخمسة عشر ريالاً متى كانت زنتها أقل من ثلاثة جنيهات وعشرة ريالات، فإذا جاوزت ذلك الحدّ اعتُبِرت قيمتها بحسب الوزن. والقرش الجزائري يزن حوالي بستولين ونصف البستول من العملة الإسبانية.

أما العملة المحلية المعروفة باسم «السلطانيّ» فتساوي قرشين ونصف القرش، وهناك «الأسبر»، وهو عملة صغيرة تعادل الدانق الفرنسي، ومئتان واثنتان وثلاثون منها تساوي قطعة «باتاك»[1] pataque.

الأوزان والمكاييل

يزن القنطار الجزائري 133 رطلاً مرسيلياً، ومئة وستة أرطال بحساب المارك. والرطل ست عشرة أوقية، باستثناء الشوكولاتة وبعض السلع الأخرى التي يكون رطلها أربع عشرة أوقية فحسب. أما التمر والزبيب فالرطل منها سبع وعشرون أوقية.

قياسات أطوال القماش

تقاس الأقمشة بالذراع التركي الذي يعادل نصف ذراع وبوصة واحدة. أما الأقمشة المطرزة بالذهب أو الفضة والأقمشة الحريرية فتقاس بالذراع الموريسكي الذي لا تتجاوز ثلاثةُ أذرُع منه ذراعين وثلث الذراع بالتركي.

عقلية الأتراك والموريسكين وعاداتهم وتقاليدهم

تختلف عقليات الأتراك والموريسكين اختلافا كبيراً؛ أما الأتراك فيغلب عليهم الاعتزاز بالنفس والصلف، ويميلون إلى النهب والقرصنة، ولا ينظرون إلى غيرهم إلاّ متعالين محتقِرين لما اعتادوا عليه من رؤية الناس عبيداً عندهم. وهم يخضعون لتعاليم شريعتهم ولسلطة الحكومة ما دامت قائمة، لكنهم على الدوام ثائرون أو متأهّبون للثورة، مستعدّون في كلّ لحظة للانقضاض على أميرهم واغتياله لأدنى سبب. وهناك من بينهم الحكيمُ الذي له مبادئ أخلاقية لا يحيد عنها، لكنّ غالبيتهم الساحقة لا يمسكها عن خرق القواعد الأخلاقية والدينية معاً إلاّ الخوف من العقاب. وهم ذوو طبع جلف

(1) الباتاك عملة قديمة في إيطاليا والبرازيل وبلاد أخرى (المترجم).

غليظ، لا دراية لهم بالآداب ولا الفنون، وغالبيتهم أمّيون لا يحسنون القراءة ولا الكتابة. وأمّا عامة مأكلهم فالأرزّ والفواكه واللحوم والسمك المشوي. وعلى الرغم من أنّ دينهم يحرّم عليهم شرب الخمر إلاّ أنّ أكثرهم يقبلون عليها بنَهَمٍ يقارب الإسراف، ولعلّهم لو تناولوا منها بمقدارٍ لجعلَتهم أشجع قليلاً وأربَطَ جأشاً مما هم عليه.

التزاور فيما بينهم

لا يتزاور الأتراك أبداً إلاّ لإبرام الصفقات التجارية، فلا يلتقون إلاّ في المقاهي، أو الميناء، أو عند الداي، أو في ملتقى طرق. وقد يجالس الرجل منهم صاحبه ساعتين لا ينبس أحدهما بكلمة.

بيت الداي

لا يختلف بيت الداي كثيراً عن غيره من بيوت الناس إلاّ في كونه أكبر قليلاً. ويتخذ الداي مجلسه عادة في باحة البيت على نتوء من حجر، وهناك يعقد مجلسه ويجمع الأعيان للتشاور واتخاذ القرارات. أمّا قاعة الاستقبال ففي أعلى البيت، وهي على شكل ممرّ طويل يمتد إزاء المطبخ. وليس للداي من البيت فيما عدا ذلك سوى حجرتين مبلّطتين بالقاشاني المشرقيّ، أمّا باقي الغرف فحقيرة مهملة يسكنها الضباط. وفي الإسطبل الوضيع المتّسخ يقف خمسة وعشرون أو ثلاثون حصاناً مربوطاً إلى وتد بسلسلة من حديد، وقد بدت لي كلها هجينة ليس فيها جواد أصيل واحد، اللّهم إلاّ جواداً رمادياً مُرَقَّطاً أهداه إياه سلطانُ مراكش (المغرب).

في طريقة سير النساء في الطرقات

لا يحق لتركيٍّ أن يرى وجه زوجة تركي آخر، وتمضي النساء في الطرقات ملثمات لا يبدو منهن إلاّ العينان. وهنّ يتزاورْنَ فيما بينهنّ أحياناً، وإذا حصل ذلك فلا يحقّ للتركي دخولُ بيته طالما كانت فيه امرأةٌ أخرى مع زوجته.

حفلات الزفاف

يقترن الأتراك في الغالب بفتيات موريسكيات، ولا يرى الرجل خطيبته حتى يصبحا زوجين، وليس له من وسيلة يعرف بها قبل ذلك نصيبَها من الجمال إلاّ بالاعتماد في ذلك على أقوال أهلها أو ما تصفها به الخاطبات. وكثير من هؤلاء الموريسكيات ذوات بشرة بيضاء، بل إنّ منهن من تتمتّع ببعض

الجمال. ويقدّم أهل العروس إلى العريس مهراً من أرض ومال. وعلى الرغم من أنّ دينهم يسمح لهم بالزواج من أربع نساء إلاّ أنه قَلَّ منهم من يتجاوز واحدة. وهم لا يخجلون من العاهات الجسدية، ولا يتضايقون منها، بل ربما تباهى بعضهم بها واعتبرَها بَرَكةً من السماء.

ألعاب الحظّ والقمار

يُحرّم عليهم دينهم تعاطي أيّ لعبة يخاطر فيها اللاعب بماله، ولا يمارسون فيما بينهم سوى لعبةٍ شبيهة بالشطرنج، لا غايةَ من ورائها غير متعة اللعب.

حرمة اليمين

لا يجرؤ أحد منهم على القسم بالله كذباً، ودينهم يحرّم عليهم ذلك تحريماً صريحاً. وهم علاوة على ذلك يترفّعون عن النهب والسرقة في أثناء المعارك.

ومن تعاليم دينهم فرضُ الضرائب والمكوس على الخبز والخمر وغير ذلك من مواد الاستهلاك.

وخير المهن عندهم مهنة الجندية.

ومن غريبِ طبعِهم مسارعتُهم إلى تناسي أسباب الخلاف ما أن تمضي لحظة الحَمَيَّا الأولى.

وهم يرون أنّ من صميم تعاليم دينهم أن يتركوا لغيرهم الحرية في ممارسة شعائر دينه، ويكنُّون احتراماً عميقاً للنصارى واليهود الذين يلتزمون بتعاليم دياناتهم.

أما الرأي والمعتقد فيتمتّعون في شأنهما بحرية كبيرة، ولكلٍّ أن يتبع ما يراه منها صائبا، شريطة ألاّ يمنعه ذلك من خدمة الجمهورية متى احتاجت هذه إلى خدمته.

في ما يمتهنه الموريسكيون من مهن

بعض الموريسكيين له مالٌ جمٌّ، وبعضهم له تجارة رائجة، لكن غالبيتهم العظمى تعيش في فقرٍ مدقع. ويشتغل بعضهم أجيراً لدى الأتراك، فيما يقيم الآخرون في الأرياف حيث يعيشون في الخيام لأن أراضيهم تكاد تخلو من كل أثر للعمران. وهُم يعيشون في تجمعات عائلية تحت إمرة رئيسٍ هو الذي يدفع الضرائب باسم المجموعة، ويحرثون قطعة من الأرض يأكلون مما تنبته حتى يستنزفوها أو يملّوها، فينتقلون إلى غيرها. وتتّسم نظرتهم إلى الأتراك بقدرٍ كبير من التبجيل والاحترام، على

الرغم من أن هؤلاء يعاملونهم بكثير من الازدراء والتعالي. والموريسكيون على العموم خبثاء ماكرون غشاشون، لا يتورّع أحدهم عن الوشاية بصاحبه، وهو ما يمكّن الأتراك من رقابهم بأسهل بكثير مما كانوا سيفعلون لولا ذلك.

ولدى الموريسكيين قضاتهم وضباطهم الخاصون في الجيش، كما أنهم في المدن لا يختلطون بالأتراك أبداً.

ويقولون إنه ليس من النادر أن ترى ثمانية آلاف إلى عشرة آلاف رجل من الأتراك يخوضون معركة ويحسمونها وحدهم فيما جيش من أربعين ألفا من الموريسكيين واقفون ينظرون، لا يدلون في المعركة بدلو، بل يتظرون أن يُعرف الفائزُ فينضموا إليه.

وعلى بعد خمسة فراسخ أو ستة من المدينة تعيش شعوب لا تدين بالخضوع التام للأتراك، بل تكتفي بدفع الضرائب للدولة ومساعدتها في حال الحرب، وهي شعوب «زواغة» و«عريب» و«تيبازة».

في أفضلية الجمهورية على ما جاورها من الأمم

يرى الأتراك الجزائريون أنهم خير من جيرانهم في تونس ومراكش وفاس وسلا، وهم كذلك فعلاً، وطالما قهروهم في أغلب المعارك التي خاضوها في مواجهتهم. بيد أنهم يرون أن مصالحهم تقتضي محاباة هؤلاء الجيران، لعلمهم أن أعدى أعدائهم هم الموريسكيون الذين يعيشون تحت حكمهم، والذين لو اتحدوا مع بني جلدتهم من أهل البلاد المجاورة لَمَحَقوا حاكميهم من الأتراك بأسرَعَ مِن طَرفَةِ عينٍ.

وأما النّصارى فلا يرى الأتراك مصلحة في مراعاتهم، فترَاهم في التعامل معهم يمضون على سجيتهم في الميل إلى السلب والنهب، ولا يتورّعون عن ممارسة أعمال القرصنة ضد سفنهم، خصوصاً وأن غنائم هذه الأعمال تمثّل القسم الأهمّ من موارد الدخل عندهم. والقرصنة تعود بالفائدة على الدولة وعلى الخواص معاً، على الرغم من أنها في الظاهر تفيد تلك على حساب هؤلاء؛ لأن الدولة وإن كانت تفرض على كل من أضاع سفينته في القرصنة أن يصنع سفينة جديدة، علاوة على حيازتها ميراث القتلى من البحارة، إلاّ أن القراصنة في مقابل كل أربع سفن أو خمس متهالكة لا ينتزعها العدو منهم إلاّ بعد طول عناء يكونون قد أسروا خمسين سفينة تجارية جيدة التجهيز، غنية الحمولة، تعوّضهم عن خسارتهم وتزيد بكثير.

وهم يعلمون حق العلم أن أعداءهم من النّصارى لو اجتمعوا عليهم فحاصروا ميناءهم وسدّوا عليهم منافذه لسارع إليهم الإفلاس من فرط اعتمادهم على عائدات القرصنة، ولذلك تَراهم يتحاشون استجلاب نقمة أمراء النصارى جميعاً في آن، فيحاربون هذا ويهادنون ذاك. وهم يخشون على الخصوص فرنسا التي كانوا ومازالوا يرون أنها أقوى الدول المسيحية جميعاً.

يوم التاسع عشر من الشهر عدنا إلى ظهر السفينة، وفي الرابعة من فجر اليوم التالي أعطى القائد إشارة رفع المراسي، فلما كانت العاشرة صباحاً هبت ريح شرقية طيبة فرفعت المراكب أشرعتها وأقلعنا من خليج الجزائر، وعند منتصف النهار كانت جميعاً تمخر العباب تحت ريح شرقية معتدلة وبحر مضطرب، فسرنا جانحين إلى الشمال ومُدنين الأشرعة باتجاه الريح. وفي السابعة مساء كان رأس «كاسين» قد أصبح وراءنا ناحية الجنوب، ورأس «ماتيفو» إلى الجنوب الغربي.

سكنت الريح يومي الحادي والعشرين والثاني والعشرين من الشهر حتى لم تعد هناك مِن نَسمة. كان موقعنا ساعتها 38 درجة و59 دقيقة شمالاً، وعند الخامسة عصراً ظهرت في الأفق سفينة تتبع خط سيرنا نفسه، فأشار إلينا القائد بعلم أبيض وطلقة مدفع أن نتبعها، فتبعناها تحت ريح شرقية هبّت طوال الليل فجعلت السفن تسير بسرعة فرسخين في الساعة.

عند الساعة الواحدة من صباح الرابع والعشرين توفّي أحد ملاحي سفينتنا، وفي الخامسة فجراً بدت لنا الأرض، فزاد البحارة من مساحة الأشرعة، وأسرعت السفن من أثر ذلك في الإبحار، حتى إذا كانت التاسعة صباحاً انحرفنا صوب اليابسة. لكن الريح كانت رطبة مليئة بالأمطار، والسماءَ مثقلةً بالسحب والبرق والرعد، فأمر القائد ربابنة السفن بأن يضمّوا الأشرعة الكبرى إلى الصواري، وسرنا الليل كلّه مبحرين بها مضمومة.

رحلة الأب «جون - هو»

عند الرابعة من صباح اليوم التالي؛ الخامس والعشرين من الشهر، أبصرنا سفينة متجهة صوب الجنوب الغربي، قادمة من «جزر الكلاب» التي اختلط على الأب «جون - هو» الأمر في شأنها، فخلط بينها وبين «غاليبولي» الإيطالية في روايته عن رحلته إلى أرض المشرق.

عند الثامنة صباحاً رأينا سفينة إنجليزية تبحر صوب الشمال الغربي، وفي التاسعة ألقينا بجثمان البحّار الميت إلى الماء.

يوم السادس والعشرين من الشهر التقينا مركباً شراعياً فرنسياً قادماً من المشرق، فأرسل زورقه إلى سفينة القائد ليحمل منه ما يريد إرساله إلى فرنسا من أخبار، ثم تابع طريقه بعد أن حيّانا بثلاث طلقات من مدفعه قاذف الحجارة.

عند الثامنة من مساء يوم السابع والعشرين كنا بين «الجزيرة المنبسطة» و«رأس الزبيب». سبرنا العمق فإذا هو نحوٌ من عشرين باعاً على قاع من الطين. وفي التاسعة أعطى القبطان إشارة إلقاء المرامي، وذلك بإطلاق خمس طلقات مدفعية، ورفع رايتين مزدوجتي الرأس متراكبتين في مقدمة سفينته، ورايتين مزدوجتي الرأس على الجوانب، وواحدة على المؤخّرة، فما حلّت التاسعة والنصف إلاّ وقد ألقت السفن جميعاً مراسيها بعمق ثمانية وعشرين باعاً على قاعٍ من طين.

رفعنا المرامي عند فجر الثامن والعشرين كي ندخل خليج تونس، الذي حللنا به في الثالثة بعد الظهر، ورسونا به بعمق سبعة أبواع على قاعٍ من طين. وقد كاد ربان سفينة القائد المدعو «ساباتيي» أن يرتطم بالقاع لجهله بطبيعة المكان، فما كان من القائد الذي لم يعد يطيقه إلاّ أن أنزله من سفينته وأرسله إلى السفينة «تولوز». وعند الثالثة حيّت السفن التجارية الراسية في الخليج جميعُها قائدَنا الذي ردّ تحيتها بثلاث طلقات مدفعية، واتخذنا أماكننا من شمال الغربي إلى جنوب الجنوب الغربي.

في السابعة من صباح يوم التاسع والعشرين حيّانا حصن «حلق الوادي» la Goulette بواحدة وعشرين طلقة مدفع، ردت عليه السفن طلقة بطلقة، وعند التاسعة جاء القنصل الفرنسي، فصعد إلى سفينة القبطان، فلما نزل وقفل عائداً حيّته السفن بثلاث هتافات بحياة الملك وتسع طلقات مدفعية. وفي السادسة مساء جاء مركب شحن فحمل براميل الماء وذهب بها ليملأها من «بورت فارين» Porte Farine[1]، وعند الحادية عشرة ليلًا توفي من رجالنا مساعد ملاح يدعى «أنطوان دوماس»، من مواليد مدينة «تولون».

في الغد أصدر القائد أمره بألاّ ينزل أحد إلى البّر، وذلك بعد أن أبلغه أحد ربابنة سفن الشحن أن السيد الفارس كايلوس قد أسرَ سفينة صيد شراعية تونسية كانت تبحر قرب «أبو قير». وقد أرسل القائد مندوبَ القافلة وأحد الضباط برفقة القنصل، مع أمرٍ بإخبار الباي بما حدث في موضوع السفينة التونسية، والحرص في الآن نفسه على الاستفسار منه عمّا آل إليه أمرُ الشكاوى المقدمة في شأن الأعمال التي يقوم بها قراصنة ولايته.

---

(١) (*) لعلها المريسة الحالية (المترجم).

فلما عاد هؤلاء السادة من مهمّتهم أخبروا السيد القائد بأن الباي لن يستجيب لأي طلب طالما لم يتمّ إطلاق سراح السفينة التونسية وأفرادِ طاقمها.

يوم الفاتح من يوليو / تموز أرسل القائد إلى الباي رسالة يقول له فيها إنه لن يغادر الخليج طالما لم تتمّ الاستجابة إلى مطالبه، فأجابه الباي يقول: «لك أن تبقى ما شئت، أما أنا فسأرحل بعد أيام إلى محلتي». لكنه ما لبث أن تراجع فعاد يملي على كاتبه رسالة يتعهد فيها بالاستجابة إلى كلّ ما يُطلب منه، على أن يتلقى وعداً بإطلاق سراح السفينة التونسية المحتجزة.

في اليوم التالي أرسل الباي إلى القائد بهدايا فعمد من ساعته إلى توزيعها على سفن القافلة، ثم أُذن لنا بأن ننزل إلى اليابسة، فانطلق الضباط في رحلة صيد في خرائب قرطاج، أمّا نحن فدخلنا المدينة حيث بتنا في ضيافة القنصل الذي استقبلنا بحفاوة. وقد قمت بجولة في المدينة فوجدتها تعجّ مثل الجزائر بأصناف النشّالين والعيّارين المهرة، وهذا ما أستطيع تأكيده عن بيِّنة، إذ إني وعلى الرغم من سابق علمي واحتياطي كدت أقع ضحيتهم، وكادت تضيع مني علبة التبغ.

ما حصل هو أنني بعد أن زرت ضواحي المدينة عدت فدخلت من الباب التي خرجت منها، وبينما أنا في الساحة الصغيرة التي تلي الباب أخرجت علبة التبغ، فنلت منها نصيباً، ثم أعدتها إلى جيب سترتي. هنالك اقترب مني موريسكيّ شاب في نحو الخامسة والعشرين، فمدّ يده واختطف العلبة بخفةٍ ما كنت لألاحظ معها ما فعله لولا سابق حيطتي وانتباهي. فلما أبصرت فعلته مددت يدي فأمسكت بيده وهي تدس العلبة في كمّه، فلما رأى أني أحاول استخلاص العلبة من يده قبل أن يُخفيها أفلتها فسقطت أرضاً، وانحنيت ألتقطها فانتهز فرصة انشغالي بها عنه وارتخاء قبضتي عن تلابيبه فانفلت مني وسارع يندسّ وسط المارة الذين ليسوا بأفضل منه بلا شك، فلم أره بعد ذلك أبداً. وقد قيل لي فيما بعد إنّها عصابات من اللصوص تعمل بطريقة منظّمة تحت حماية شخصيات هامة تؤدي إليها تلك العصابات عمولةً يومية.

بعد ذلك ذهبت إلى البازار، وهو سوق عادية ليس فيها ما يثير الانتباه.

في وصف مدينة تونس

تقع تونس في وسط سهل منبسط على ضفاف بحيرة «حلق الوادي» la Goulette[1]، على

(1) هي «بحيرة تونس» (المترجم).

نحو فرسخين من شاطئ البحر. وهي على هيئة مستطيل، وتحصينها ضعيف، لها أسوار ذات أبراج منخفضة متهالكة. وقد كانت المدينة فيما مضى محاطة بخنادق دفاعية وحصون منيعة، لكنّ الأتراك حين بسطوا سيطرتهم على البلاد هدموا تلك التحصينات جميعاً. وتشتهر المدينة بكونها مركزاً تجارياً تلتقي فيه السفن والقوافل القادمة من جميع الجهات، ويقولون إنها مبنيّة من حجارة قرطاج، وإن بُناتها هم العرب الذين حلّوا بتلك الأرض فاتحين.

حصن «حلق الوادي»

يوجد على شاطئ البحر حصن يسمى حصن «حلق الوادي»، يقع على مصبّ القناة التي تحمل الاسم نفسه، والتي تصل المدينة بالبحر من خلال البحيرة الممتدة على طول فرسخين في عرضٍ نحوهما. وقد بناه أشهر قراصنة زمانه خير الدين بارباروسة أو «ذو اللحية الحمراء».

في الثالث من الشهر تناول عدد من ضباطنا طعام الغداء على مائدة القنصل، لكنهم عادوا جميعاً بعد الظهر إلى السفن؛ لأنّ القائد كان عاقداً عزمه على الإقلاع عندما تطيب الريح. وقد عاد السيد «دارسي» أيضاً فلم يبقَ على اليابسة حتى صباح الغد غير السيد «كوندامين» وحده.

في الغد؛ الرابع من الشهر، ذهبنا إلى حصن «حلق الوادي» ونزلنا اليابسة، فانطلق السيد كوندامين على جواده بصحبة تاجر فرنسي، وراحا يجوبان خرائب قرطاج بعد أن اطمأنّا إلى أنّنا لن نرفع المراسي قبل عودتهما. ولم أستطع مرافقتهما في هذه الرحلة لضرورة بقائي في حراسة متاعنا والبضائع التي كنّا قد اشتريناها من تونس، فبقيت إلى جانب الحصن برفقة عدد من الأتراك الذين شرعوا يكلّمونني بلسان لم أفهم منه شيئاً. وهكذا لبثت صامتاً إلى أن جاءني رسول من السيد كوندامين يخبرني بأنه قد وجد قارباً يحمله إلى السفينة، وأنّه سيرسل إليّ من يحملني إليها.

الراوي يحسب أن رفاقه سيرحلون من دونه

بينما كنت حوالي العاشرة أنتظر أن يأتي إليّ قارب يحملني إلى السفينة رأيت سفينة القائد وهي ترسل إشارة رفع المراسي استعداداً للإقلاع. انتابني القلق، وخفت أن ترحل القافلة تاركةً إيّاي هناك. وازداد قلقي حدةً حين سمعت عند منتصف النهار مدفع سفينة القيادة يطلق طلقة الإعلان عن الإقلاع، فحملت نظارتي المقرّبة وحدقت النظر في السفينة فإذا بي أراها وقد رفعت علم الإقلاع. حينها أيقنت أنني باقٍ هناك إلى جوار حصن «حلق الوادي» لا محالة، فانطلقت إلى الأتراك حراس الحصن أبحث

لديهم عن وسيلة أبلغ بها السفن فلم أجد، وبينها أنا في ذلك لمحت قارباً تابعاً لسفينة تاجر فرنسي وقد رسا على البرّ للتزوّد ببعض المؤونة من الحصن، فقصدته لساعتي وخاطبت القبطان الذي كان لحسن الحظ على متنه، موضحاً له رغبتي باللحاق بلا إبطاء بالسفن الملكيّة التي كانت على وشك الإقلاع وهي على بعد نحو فرسخين من اليابسة، ورجوته أن يعيرني قاربه ليلحقني بها، فاستجاب الرجل لذلك بكل رحابة صدر.

قفزت إلى ظهر القارب فوراً وشكرت القبطان بكل حرارة، ثم انطلق القارب بي صوب السفن، ولمّا كان على القارب ستة ملاحين؛ خمسة منهم يجدفون والسادس يُمسك بالدفة، فقد حللت محلّ هذا كي يجدف الستة معاً، وشققنا صفحة الماء بين ريح معاكسة وموج عاتٍ، حتى خشيت ألاّ نلحق بالسفن أبداً. وأخيراً بلغناها والملاحون يرفعون المراسي والقلوع قد أُشرعت استعداداً للانطلاق. وقد عجب البحارة جميعاً من إفلاحي في اللحاق بهم، وخصوصاً السيد كوندامين الذي كان يائساً من استطاعتي اللحاق بالسفن ومتفكّراً في ما سيؤول إليه حالي وحيداً غريباً في هذه البلاد.

صعدنا أنا ومن كان معي من الملاحين من فتحة مدفع، وأمرت للبحارة الذين أتوا بي بشراب، وشكر لهم السيد كوندامين جميل فعلهم معي. والحقّ أني لم أكن الوحيد الذي كاد يبقى في البرّ، إذ في الوقت الذي كنت فيه حبيس اليابسة عند الحصن كان هناك كثير من الضباط يتجوّلون في خرائب قرطاج. وقد وجدت عن غير وعي مني عزاءً عما وقع لي حين رأيتهم يلتحقون بالسفن الواحد تلو الآخر مستعملين مثلي ما وجدوه من وسائل.

عند الثانية ظهراً غادرنا خليج تونس تحت ريح شمالية غربية. لكن لمّا بلغت السابعة مساء ونحن لم نجاوز أرخبيل الجامور Zembra انحرفنا بحيث أولينا مؤخرة السفن للريح، حتى أصدر القائد أمره بأن نعود إلى الخليج حيث كنا راسين، فعادت السفن متّجهة صوب غرب الجنوب الغربي، وألقت المراسي أمام قرطاج، بين «بور فارين» والرأس المذكور، على عمق نحو سبعة وثلاثين باعاً على قاع من الطين.

في التاسعة صباحاً من يوم الخامس من الشهر، أعطى القائد إشارة الانطلاق، فما كانت الساعة الحادية عشرة حتى كنا مبحرين نمخر العباب تحت ريح طيبة من شمال الشمال الغربي. وسرنا في التفاف في انتظار أن نجاوز أرخبيل الجامور، فلما لم نبلغه عند السابعة مساء سارت السفن باتجاه عرض البحر. وعند العاشرة سكنت الريح، فأنزلنا القلوع وبقينا مكاننا حتى الثامنة من صباح الغد.

في الـسـادس من الشـهر تابعنا طريقنا تحت ريح ضعيفة، فلمّا كان يوم الثاني عشر قاسَ الربابنةُ ارتفاعَنا فوجدوا أنّنا على 33 درجة و43 دقيقة شمالاً، وفي اليوم نفـسه أعطى القائد أمره بمراقبة الأرض، فما كانت الخامسة عصراً حتى رأيناها.

بدا لنا يوم الثالث عشر حصن طرابلس بنخيله الكثيف، ثم لم نلبث أن رأينا المدينة تتبدّى بوضوح لأعيننا. وفي السادسة ألقينا المراسي على عمق سبعة عشر باعاً على قاع من طين.

جاء القنصل الفرنسيّ فصعد إلى سفينة القبطان، فلما نزل وقفل عائداً حيّته السفن بثلاث هتافات بحياة الملك وتسع طلقات مدفعية. وحيّت السفن التجارية الراسية في الخليج قائدنا بطلقات مدفعية ردّ عليها بطلقة واحدة، ولم ينزل منا البرَّ في يومنا أحد.

في اليوم التالي؛ الرابع عشر من الشهر، نزلنا جميعا البَرّ، وذهبنا إلى عند القنصل الذي استضافنا بحفاوة لم تميّز بين السيد والعبد. وقد قدم إلينا كثيراً من الأطعمة الشهية. لكن لمّا لم يكن في منزله من الغرف ما يتيح إفرادَ غرفةٍ لكل ضيف فقد فرشوا على الأرض أفرشة إضافية، فبتنا جماعةً في كل غرفة، وقضينا ليلةً فيها كثير من اللغط وقليل من النوم.

استقبال باي تونس لنا

عند التاسعة من صباح يوم الخامس عشر ذهبنا للقاء الباي مرافقين للسيد المركيز «داتان»، المبعوث من قِبل السيد القائد «دو غواي»؛ ليقف على تنفيذ الاتفاقات وتطبيق الشروط المتفق عليها بعد عملية القصف الأخيرة. وقد أرسل إليه القائد هدية مؤلفة عن مسدسين رائعين بماسورتين من المعدن المقوّى. تأملهما الرجل لفترة طويلة بإعجاب شديد قبل أن يأمر للعبد الذي أتاه بهما بعشر قطع سَكين إيطالية.

وقد كان برفقة السيد المركيز في أثناء هذا اللقاء عدد من الضباط، وكل أفراد الحرس البحري بأزيائهم الرسمية. ولما كان الجو حاراً فإنّ أحد الضباط الكبار كان واقفاً قرب الباي، ممسكاً بمروحة من الريش لم يكفّ عن الترويح عنه بها طيلة المقابلة. وكان الأمير جالساً إلى يسار الداخل على مصطبة جميلة النقش رائعة الزخرفة، والسيد المركيز إلى يساره، وباقي الضباط وأفراد الحرس جالسين بين يديه على شكل نصف هلال. وجيءَ بكثير من القهوة وعصير الليمون فسُقي القوم جميعاً، ثم أُحرِق بعض البخور في القاعة، وجاء من رشّنا بماء الورد وكثير من العطور الأخرى، فلما انتهى اللقاء خرجنا من القصر بالترتيب ذاته الذي دخلنا به إليه.

البازار

ذهبت بعد ذلك إلى البازار؛ السوق التي تقام خارج المدينة على شاطئ البحر، فوجدته مكاناً تحلو النزهة فيه لولا تلك الكميات الكبيرة من الرمل التي تكسوه، والتي يزيدها القيظ في هذا الفصل كثافة. والسهل هناك مزروع بعدد كبير من أشجار النخيل لم يُراعَ في زرعها تنسيقٌ ولا رُوعيت جمالية، وفيه عدد من البساتين تُسقى بمياه الآبار التي يُستخرَج منها الماء بواسطة آلات تعمل بطريقة الرقّاص، وهي آلات تمتدّ منها الحبال من الجانبين، ويُربط طرفها من جانب بالدلاء ومن جانب آخر بِثَورٍ يجعلونه يسحبها وهو يمضي في منحدر محفور لهذا الغرض، طوله نحو ستين خطوة، فترتفع الدلاء وتسكب ماءها في خزان من الحجر، حتى إذا عاد الثور صوب البئر سَحَبَ في عودته دلاءً أخرى تصبّ حمولتها في الخزان، وهكذا دواليك. وهُم يستعملون هذه الطريقة لسحب الماء من الآبار العميقة، أمّا إذا لم تكن البئر بعيدةَ الغَور فإنهم يستعملون عجلاتٍ تدور حاملة معها أكواباً تمتلئ من ماء البئر وتُفرغ حمولتَها في مجرى أُعِدَّ لهذا الغرض.

في طريق عودتي من البازار قمت بجولة في المدينة التي بدت عليها بوضوح آثار القصف الأخير؛ من منازل مدمرة، وحيطان آيلة للسقوط، وغير ذلك من الخسائر الفادحة.

حمّامات طرابلس

ذهبت بعد الظهر إلى الحمّام مع أحد أصدقائي. والحمام مؤلّف من قاعات ذات أرضية رخامية، في وسط كلّ منها مصطبة من نحو ثمانية أقدام طولاً في خمسة عرضاً، يستلقي عليها المغتسلون ليفرك لهم خدم الحمام أجسادهم.

والحمامات هنا ذات قباب، لا يدخل إليها ضوء النهار إلاّ من خلال كُوًى صغيرة في السقف يسدّها الزجاج، وهناك نافورات ماء ساخن في حجرات صغيرة في أقصى القاعة الكبيرة لمن أراد أن يغتسل بنفسه. ويَخلع الداخلُ إلى الحمام ملابسَه في غرفةٍ شديدة الحرارة، تنتشر على أرضيّتها مصاطب من الحجر مفروشة بالحُصُر، يطرح عليها المغتسل لحافاً وغطاء إن شاء أن ينام عند خروجه من الحمام. والأتراك يبقون طويلاً في الحمام، ويقولون إنّ ذلك مفيد للصحة. والداخل إلى الحمام يخترق أربعة أبواب محكَمة الإيصاد قبل أن يصل إلى القاعة الساخنة التي فيها المصطبة، فيضطجع عليها، ويأتيه عاملُ حمامٍ تركيٌّ يحمل قطعة من قماش الإيتامين الرقيق قد جُعلت على هيئة كيس، وحُشيَت قطع قماش حتى امتلأت وانتفخت فصارت قاسية، ويأتي زميل له يعاونه بإفراغ الماء بينما هو يفرك ويفرك.

وقد استلقيت أمامه، فلما انتهيا من فركي أو لنقل من سلخي أمسكا بساقيَّ فردَّاهما إلى خلف ظهري بقوة خلت معها أنّهما عاقدان العزم على تكسير عظامي، وأحسست فعلاً كأن عظام القصّ والفخذين لدي قد انكسرت، فناشدت الرجلين قائلاً: توقفا بالله عليكما، فقد أعفيتكما من هذا التمرين العنيف. وهم يدَّعون أنّ هذا كله مفيد، وربما كان كلامهم صحيحاً، لكنني لست أرى في نفسي استعداداً للاعتياد على ذلك.

في اليوم نفسه أقام السيد قنصل هولندا مأدبة عشاء حافلة دعا إليها السادة «دانتين» و«دي فلورنفاك» و«تيبي» و«كوندامين» و«ريفست» وآخرين. وكان منزله وكذلك الباحة والممرات كلّها مضاءة، ودامت المأدبة حتى الخامسة من صباح الغد.

قوس النصر

يجد الزائر في هذه المدينة قوساً للنصر ذا أربع واجهات من بناء الرومان، وهو مغطّى بالرخام المنقوش، غير أنّ نقوشه تعرّضت للتشويه والإتلاف على مرّ الزمن، حتى لم تعد مقروءة. وقد أقاموا في المكان المحيط به مخزناً للسلع.

الانطلاق من طرابلس

يوم السابع عشر من الشهر التحقنا جميعاً بالسفن، وعند التاسعة صباحاً أقلعنا تحت ريح ضعيفة تكاد تكون ساكنة.

من يوم انطلاقنا من طرابلس وحتى السادس والعشرين من الشهر لم نقطع مسافةً تُذكَر بسبب الريح التي كانت معاكسةً أحياناً و ساكنةً أحياناً أخرى لا تحرّك شراعاً. وفي هذا اليوم نفسه رأينا جزيرة «قاندية» Candie. ولما كان السيد «د ي غواي تروان» يريد الإسراع في قضاء مهمته فقد تَقرَّرَ أن تنقسم قافلة السفن قسمين عند رأس «سان جون»، فتذهب سفينتَا «ليسبرانس» و«تولوز» إلى طرابلس الشام والإسكندرون، في حين تذهب سفينتا «ليوبار» و«أليون» إلى الإسكندرية ثم عكا ثم صيدا، على أن يكون اللقاء في مدينة «لارنكا» القبرصية.

انقسام قافلة السفن

عند الخامسة من صباح يوم السابع والعشرين انحرف القائد إلى ناحية الشرق، فيما تابعنا طريقنا

صوب شرق الجنوب الشرقي، فاختفت السفينتان عن أنظارنا عند السابعة صباحاً. وفي منتصف النهار بدت لنا أربع سفن على نحو خمسة فراسخ منا. ولما كان ربان سفينة «ليوبار» التي كنت على متنها هو قائدنا ساعتها فقد أمر برفع راية مزدوجة الرأس أعلى الصارية الكبرى، ورفع راية بيضاء على عمودٍ بألوان المملكة. أما الآخرون فرفعوا راية حمراء، وقطعوا خط سيرنا على بعد نحو فرسخين لأنهم كانوا تحت الريح، وحيّونا بثلاث طلقات مدفعية ردّت عليها سفينتنا طلقة بطلقة، فزاد الآخرون طلقة رابعة على سبيل الشكر. لقد كانت ثلاث سفن جزائرية تقتاد رابعة من البندقية أخذتها أسيرة.

يوم الثامن والعشرين رأينا الأرض التي لم تكن تبعد عنا أكثر من خمسة فراسخ. وعند الرابعة عصراً بدا لنا «برج العرب» إلى شرق الجنوب الشرقي منّا، وكان ارتفاعنا ساعتها 31 درجة و16 دقيقة شمالاً.

يوم التاسع والعشرين أبصرنا «أبو قير» التي أخطأ في شأنها ربان الشواطئ على سفينتنا، فحسبها الإسكندرية، ومال صوبها، لكنّ زميله على سفينة «ألسيون» التي كانت خلفنا كان خبيراً بهذا الموقع، فأدرك سريعاً خطأ زميله، وأخبر قائده السيد «لا فاليت» الذي أرسل إلينا إشارة أن ننتظره، فأنزلنا الأشرعة، ولبثنا مكاننا حتى لحقت بنا السفينة، فلما اجتازت بجانبنا أخبرونا بأنّ ما كنا نحسبه الإسكندرية ليس إلاّ ميناء أبو قير. وحاول ربّاننا التمسك برأيه معلناً أنه مستعد للمقامرة على ذلك برأسه، غير أن السيد الفارس «دي كامي» الذي لم يكن يثق فيه كثيراً قال للسيد لافاليت بأن يسبقنا بسفينته، فسرنا ونحن نطلق طلقات مدفعية بين الحين والآخر من أجل إخطار القنصل في الإسكندرية بقدوم السفن، متابعين طريقنا في الاتجاه ذاته، مجتازين في ذلك مناطق صخرية وأخرى ضحلة من دون أن ندري تماماً أين نحن ولا ما قد يتهدّدنا من خطر.

بعد ساعة من إطلاقنا إحدى طلقات المدفعية رأينا زورقاً يمخر العباب متّجهاً صوب سفينة السيد لافاليت. لقد كانوا جنوداً أتراكاً من حامية حصن أبو قير، سمعوا طلقات مدفعيتنا المتقطّعة فحسبونا نطلب مساعدتهم على عبور تلك المنطقة الوعرة، وجاءوا فجعلوا يشيرون إلينا بعمائمهم إلى الطريق السالكة، حتى تمكّنا أخيراً من إلقاء مراسينا على عمق تسعة أبواع على قاع من حجر عند الحادية عشرة بسلام.

الرسو في خليج أبو قير أمام الإسكندرية

جاء السيد القنصل يوم الثلاثين، فصعد على متن سفينتنا برفقة ترجمانه وعدد من التجار الفرنسيين

المستقرّين بالإسكندرية، من أجل الباحث في شؤون الجالية، فتناولوا جميعاً طعام الغداء على مائدة السيد «كامبي». فلما كان بعد الظهر انطلقنا معهم إلى البرّ على متن مركب من مراكب البلد يسمّونها «جرمس» Germes، وهي مراكب شراعية جيدة الانسياب، حملتنا خلال ساعتين إلى الإسكندرية على بُعد سبعة فراسخ من أبو قير. وحين دخلنا الميناء حيّتنا كل المراكب الراسية فيه، وكذلك مدافع الحصن، ونزلنا عند السيد القنصل الذي أحسن استقبالنا وأكرم وفادتنا.

في الغد نزل السيد «كامبي» إلى البرّ برفقة عدد من الضباط، فقضى معظمهم الليل لدى بعض التجار، إذ لم يكفهم ما في بيت القنصل من أسِرَّة. وحين دخل هؤلاء السادة الميناء أطلقت السفن الراسية جميعاً مدافعها تحيةً لهم، كما أطلق الحصن طلقات مدفع قاذف بالكرات ترحيباً بهم. وقد بقي السماط في دار القنصل ممدوداً لثلاثة أيام متواصلة، والحقّ أنه لم يبخل علينا بشيء. ويُدعى هذا القنصل «ديل»، وهو رجل في حوالي الستين من العمر، وقد اقترن منذ عهد قريب بإحدى بنات القنصل الفرنسي في «شيو» القبرصية، وهي فتاة في الثامنة عشرة من عمرها، ووجدناها سيدة لطيفة جداً، يقال إنه شديد الغيرة عليها، على الرغم من أنه لم يُبدِ عن شيء من ذلك طيلة مقامنا عنده، ولعله تأثر في ذلك بالمزاج الفرنسي.

أطلال الإسكندرية

في اليوم نفسه ذهبنا بعد الغداء لزيارة أطلال الإسكندرية القديمة، وقد قطعنا الرحلة على ظهور الحمير مقابل أربعة قروش للفرد الواحد، وقد كنا خمسة وعشرين رجلاً أو ثلاثين، رحنا نتجول على متن بهائم ليس لها لجام ولا ركاب، بحيث كان من الضروري الحفاظ على التوازن والبقاء مستقيم الظهر خيفة الوقوع أرضاً، وهو ما كان يحدث كثيراً عند الركوب.

بدأنا بزيارة العمود الشهير المعروف باسم «عمود بومبي»، وقد قام السيد كوندامين بقياسه بدقة، فوجد أنّ طوله أربع وتسعون قدماً، بما فيها قاعدة العمود وتاجه. أما جسمه، وهو من قطعة واحدة من الصخر، فطوله ثمانون قدماً، وقطره ثماني أقدام في أعرض موضع. ويقف العمود وقاعدته على مصطبة مربّعة من الحجر، طول ضلعها أربع أقدام، تستوي فوقها القاعدة المتدرّجة. والعمود منحوت من صخر الجرانيت الجميل المجلوب من مقالع مصر العليا، وهو منصوب وسط الحقول بعيداً عن المدينة التاريخية. بعد ذلك ذهبنا إلى دير «القديسة كاترين» الذي يُشرف عليه رهبان من اليونان المنشقّين[1]،

(1) المقصود الأرثوذكس، (المترجم.)

حيث أطلعونا على الحجر الذي يدّعون أنّ رأس القديسة قد قُطعت فوقه.

رحلات «بول لوكاس»

يقول بول لوكاس بأنّه رأى آثار دم على الحجر، وقد تفحّصناه بعناية من كل الجوانب وعلى ضوء المشاعل؛ لأن المكان معتم، وهو من رخام أبيض مجزع تجري على صفحته عروق حمراء من مثل ما هو معهود في هذا النوع من الأحجار، وهي الخطوط التي لا شكّ في أنّ لوكاس وغيره قد حسبوها آثاراً من دم القديسة، وعسى أن يكون في توضيحنا هذا ما يزيل كلّ لبس لدى من كان من القراء مسارعاً إلى تصديق كلّ ما يسمعه. والحجر المعنيّ قطعة من عمود رخامي، وارتفاعه عن الأرض نحو قدمين ونصف القدم.

مسلة كليوباترا

غادرنا الدير، فذهبنا إلى المسلّة المعروفة باسم «مسلة كليوباترا»، وهي عمود من الجرانيت المنحوت منه عمود بومبي، بارتفاع ستين قدماً. ويحمل جسمُ المسلة عدداً من النقوش العربية وصوراً لطيور وحيوانات أخرى. وقد كان هناك في الماضي أربع مسلات كانت كليوباترا تتجوّل بينها على ظهر جوادها، اقتلع الأتراك ثلاثاً منها نقلوها من هناك فاستعملوها في بناء المساجد.

لا يرى الرائي بين هذه الأطلال إلا أعمدةً، وخزاناتِ مياهٍ، وقواعدَ أبنيةٍ، وغيرَ ذلك من الآثار الشاهدة بعظمة وجمال هذه المدينة التي كانت في الأمس عاصمة العالم بعد روما.

موقع الإسكندرية

شُيّدت الإسكندرية عام 332 قبل الميلاد، فوق سهل منبسط على شاطئ البحر، على مقربة من أحد أذرع دلتا النيل السبعة، وهو الذراع الذي يدعونه «مصبّ الخابية».

تأسيس الكنيسة

أُسّست كنيسةُ الإسكندرية من قِبل القديس مارك عام 50 للميلاد، وفي السنة السابعة من حكم الإمبراطور نيرون أصبحت بطريركية، ولا تزال كذلك إلى اليوم.

كرسي القديس مارك

رأينا في إحدى كنائس الأرمن حاملةَ كرسيٍّ من الخشب قد وضعت على مصطبة من حجر ترتفع أربع أقدام عن الأرض، قيل لنا إنها قطعة من الكرسيّ الذي كان القديس مارك يجلس عليه وهو يَعِظُ المؤمنين. والأرمن كما اليونان يؤمنون إيماناً قاطعاً بأنّ الكرسيّ كرسيّ القديس، وهو ما لا أرى مانعاً يمنعني من الإيمان به، إلاّ أنّني أحسب أن مجلس الرجل لم يكن وثيراً، إذ لم يكن كرسيه في أيامه أفضل حالاً مما هو عليه اليوم!

تحصينات المدينة

كانت المدينة فيما مضى جيدة التحصين، بأسوار عالية، تحرسها أبراج، يقف كل منها على بعد ثلاثمئة خطوة من الآخر. والأبراج عبارة عن قاعات مستديرة بقبّة تقوم على أعمدة، تستطيع كل منها استيعاب مئة رجل، وفي أعلاها تنتصب سطوح يمكن أن يحمل كلّ منها العدد نفسه من الرجال، وفيها فتحات للرمي. وبعض هذه الأبراج لا يزال قائماً حتى اليوم.

ذهبنا يوم الثاني من الشهر إلى زيارة المدافن، حيث قبور المصريّين القدماء، وهي على بعد نحو فرسخ من المدينة التاريخية. وقد ذهبنا إلى هناك ممتطين ظهور الحمير كما فعلنا بالأمس، وكنا بالعدد نفسه تقريباً، ومعنا المرشدان الدينيان اللذان كانا معنا على ظهر السفينتين، وراهبان كُبُّوشيان كذلك من رهبان الإسكندرية سارا في مقدمة القافلة.

مدافن المصريين القدماء في الإسكندرية

ينزل الزائر إلى هذه المدافن بدرج طويل، أو قُل إنّ شكل المكان يدلّ على أن درجاً كان هناك في الماضي يُنزَل بواسطته إليها، لم يبقَ مكانه اليوم غير دهليز يمضي في انحدار. فإذا قطع المرء نحو عشرين خطوة نزولاً وجد نفسه في ممراتٍ تنام أجداثُ الموتى في حفر أُحدِثَت في جدرانها، بعرض ثلاثة أقدام وعمق ستة. والممرّات على يسار الداخل مغمورة بالمياه، فلا يمكن دخولها، أمّا الممرات الأمامية التي على اليمين فقد دخلنا إليها من خلال نفق ضيق لا ينفذ المرء منه إلاّ زاحفاً على بطنه. فلما أصبحنا إلى الجانب الآخر وجدنا أنفسنا في قاعة فسيحة بطول نحو أربعين قدماً في عرض اثنتي عشرة، على جدرانها حُفر تحمل الأجداث مثل سابقتها التي ذكرناها آنفاً، على الرغم من أنّ بعضها مختلف قليلاً. وهناك ممرات جانبية دخلنا أحدها فأفضى بنا إلى حجرة مستديرة محيطُها نحو ثلاثين قدماً، وعلى

جدرانها أيضاً حفرٌ تحمل أجساد الأموات مثل نظيرتها في القاعة الكبرى. ويقولون إنّ تلك الحجرات كانت مدافن مخصصةً لدفن الأموات من الأسرة الواحدة. والمكان مليءٌ بالرمل الذي كانوا يستعملونه في حفظ الجثث، ولا يدخله ضوء النهار من أي جهة، مما يستلزم اصطحاب مصابيح لدخوله. وأهل البلاد يؤكّدون أنّ المدافن فسيحة تمتد تحت الأرض على مساحات واسعة، وأنّ ما رأيناه ليس سوى قسم بسيط منها، إذ غمرت المياه قسمها الأعظم فأغلقت منافذه.

بعد الانتهاء من زيارة هذه الأماكن اعتلينا ظهور الحمير عائدين أدراجنا إلى المدينة، فلم نكد نقطع مئة خطوة حتى عثر حمار أحد الراهبَيْن الإسكندريّين فألقاه أرضاً، ولست أدري أيهما كان شؤماً على الآخر، لكن قائدنا كان هو التالي سقوطاً، غير أنه لم يُصب بضرر، ثم تلاه آخرون كثر بعد ذلك.

في اليوم التالي عاد السيد كامبي إلى ظهر سفينته ومعه السادة الضباط، أمّا نحن فبقينا في البرّ حتى يوم التاسع من الشهر؛ تاريخ إقلاعنا من هناك.

أفران التفريخ

رأيت هنالك أيضاً أفران التفريخ، وهي صناديق كبيرة يضعون فيها البيض بالآلاف لجعله يفرّخ، تماماً كما لو كان الدجاج يحضنه. وهم يجعلونه في درجة حرارة ثابتة معادلة لحرارة جسم الدجاجة، فإذا انقضى الأمد الطبيعي خرجت الكتاكيت إلى النور. حينها يطلقون المنادين في الأسواق يُخبرون الناس بذلك، فيأتي المشترون ليقتنوا كتاكيت يربّونها في بيوتهم. على أنّ هذه الأفراخ لا تَسمَن أبداً، وليس لها المذاق اللذيذ الذي نعرفه للدجاج المُفرَّخ بطريقة طبيعية.

الانطلاق من الإسكندرية

امتطينا الزوارق يوم التاسع من الشهر، فحملتنا إلى السفينتين. وقد حلّ في اليوم نفسه بسفينة القائدِ السيدُ «بينون» القنصلُ الفرنسيّ في الإسكندرية، الذي جاء يستلم من عند القائد أوامر البلاط، وعاد في اليوم التالي بصحبة نائبه وعدد من تجّار المدينة.

وعند الرابعة من فجر الحادي عشر رفعت السفينتان مراسيهما، فما كانت السادسة حتى كنّا مبحرين تحت ريح ضعيفة. وقد قاسوا ارتفاعنا في اليوم التالي فوجدوه 32 درجة و34 دقيقة شمالاً. وفي اليوم التالي أخطأ ربابنتُنا الحسابَ، فظنوا أنّنا أصبحنا على بعد ثلاثين فرسخاً من عكا، لكن لما قدّموا قياساتِهم إلى القادة أعاد هؤلاء الحساب فجعلوهم يدركون خطأهم.

إلقاء المراسي في خليج حيفا

يوم الرابع عشر من الشهر استمرّت الريح مؤاتية لنا، وفي اليوم التالي بدت لنا الأرض، فعرفنا منها جبل الكرمل. وعند التاسعة ألقينا المراسي بين هذا الجبل وبين عكا.

في العاشرة أطلقت المدينة طلقات مدفعية لتحيّتنا، وبعد ذلك بساعتين جاء السيد القنصل فصعد إلى متن السفينة مع عدد من التجار، فتباحثوا مع القائد في شؤون الجالية، ثم عادوا أدراجهم إلى اليابسة، فرأينا أن نستفيد من فرصة وجود مكان على زورق القنصل، فركبنا معه، غير أنّ الريح كانت معاكسة، فلم نبلغ البرّ إلاّ عند التاسعة مساء.

ولما كان السيد كوندامين عازماً على الذهاب إلى أورشليم بيت المقدس، فقد كان يودّ أن نركب في تلك الليلة نفسها فنسرع بالمسير إلى الناصرة. بيد أن الوقت كان متأخّراً فلم نجد خيولاً ممّا اضطرنا إلى الانتظار حتى صباح الغد. وقد كان علينا في الصباح أن نستعين بالآغا نفسه من أجل الحصول على الخيول، لننطلق عند التاسعة صباحاً من عكا. فلما بلغنا الناصرة عيّنوا لنا ضابطاً من الإنكشارية وجنديَّيْنِ مسلَّحَيْنِ ببندقيتين لِخَفَرِنا في الطريق.

رحلة بيت المقدس

غشت / آب 1731

غادرنا عكا يوم السادس عشر باتجاه الناصرة برفقة الأب «هيو» الذي كان قد صعد إلى متن سفينتنا في الإسكندرية، ومعنا الحرس الذين ذكرتهم قبلاً. وبعد أن سرنا لمسافة ميلين دخلنا في بعض الأحراش وإذا بنا نرى ثلاثة من العرب يُقبلون نحونا، اثنان منهم راكبان يحملان رماحاً، والثالث راجل يحمل عصا. فلما رآهم الانكشاري الذي كان يخفرنا خاطبنا محذراً منهم قائلاً إنهم لصوص، فاتخذنا حذرنا، واستخرجنا مسدساتنا ونحن عازمون على الدفاع عن أنفسنا، غير أنهم مرّوا بنا، فلم يتوقفوا، ولم يجرؤ أحد منهم على فعل شيء.

ولّما خرجنا من تلك الأحراش دخلنا غابة باسقة الأشجار، كان واضحا أنها لن تكون أقل خطراً من الأحراش. وقد تحقّقت ظنوني حين خاطبَنا الدليلُ موصياً إيانا بالحيطة، وبأن نمسك مسدّساتنا بحيث تكون باديةً للعيان، وكذلك فعلنا، فقطعنا الغابة من دون أن نرى ما نُنكره. وكانت القريتان الواقعتان في الجوار في حرب قبل قدومنا بثمانية أيام، فكان الناس يقيمون في خيامٍ نصبوها في تلك النواحي.

سهل زبلون

خرجنا من الغابة فدخلنا سهل زبلون الذي بدا لي خصباً ممتد البساتين والمروج.

كنيسة القديسة آن والقديس جواكيم

على قمّة جبل إلى يمين السائر تقع على بعد نحو فرسخ من السهل كنيسة شيّدتها القدّيسة هيلانة تكريماً للقديسين «آن» و«جواكيم» في المكان الذي كانا يقيمان فيه. وعلى الرغم من أنّ الكنيسة تكاد تكون أطلالاً فإن ما يراه الزائر هنالك من بقايا الأعمدة والأحجار المنقوشة وأساسات الجدران يشهد جميعه بما كان عليه البناء ذات يوم من فخامةٍ ومن جمال.

يقوم على خدمة الكنيسة راهب يونانيّ فقير رقَّ له قلبُ السيد كوندامين، فتصدَّق عليه ببعض المال، فشكره بأن أعطانا بعضاً من ثمار البطيخ التي أذهبت عنّا عطش الطريق.

وتقوم إلى جوار الكنيسة قرية صغيرة تدعى: «سافوريس»، ليس فيها أكثر من سبعة منازل أو ثمانية. وقد غادرنا المكان بعد الزيارة، فتابعنا طريقنا صوب الناصرة، حيث وصلنا عند الخامسة عصراً، فنزلنا في دير الرهبان الفرنسيسكانيين الذين أكرموا وفادتنا، وقد خرجنا في اليوم نفسه إلى الكنيسة لنؤدّي فيها شعائرنا.

في وصف كنيسة الناصرة

يصعد الزائر إلى المذبح الأكبر من خلال سلَّمَيْنِ، وهو يقع على الطريق المؤدّية إلى المغارة التي كانت السيدة العذراء تنعزل فيها للتعبُّد. وزائر المغارة ينزل إليها من خلال سُلّم من ست عشرة درجة، فيجد أمامه محراباً جميلاً، أرضُه وجدرانه مغطاةٌ بالرخام الأبيض. وعلى يسار الداخل يقوم عمودان من الجرانيت نصبتهما القديسة هيلانة هناك؛ أحدهما لا قاعدة أرضية له، بل يتدلّى من السقف ويبقى أسفله مرتفعاً عن الأرض بقدمين، ويقولون إنه قائم في المكان الذي ظهر فيه الملاك للسيدة العذراء ليحمل إليها البشارة؛ فيما يقوم الآخر في المكان الذي كانت واقفةً فيه ساعَتَئِذٍ. ويقولون إن المحراب مبنيٌّ مكانَ منزلِ السيدة العذراء الذي حملته الملائكة ونقلته من هناك إلى مدينة «لوريت» في إيطاليا.

انتهينا من زيارة الكنيسة والدير، فانتقلنا إلى قاعة الطعام حيث تناولنا العشاء بصحبة الرهبان الذين أكرموا وِفادَتَنا خيرَ إكرام. فلما انتهينا جاء السيد «إيسنار» نائب الأراضي المقدسة يُحذِّرنا من أنّنا لن نستطيع دخول بيت المقدس مرتدين أزياءنا الفرنسية، بل لا بد من التنكر في زي العرب. وقد أقرضَنا بعضَ الملابس لهذا الغرض، فأزلنا عنّا ملابسنا، وارتدينا نحن الثلاثة تلك الأزياء الغريبة، فلم نتمالك أنفسنا من الانفجار ضحكاً ممّا رآه كلّ منا من نفسه ومن الآخرين. أمّا الأب «هيو» فبدا، بلحيته الوقورة المليئة تبغاً وسحنته السمراء، قادرا على أن ينازع الشأوَ أكثر العرب قذارة واتساخا. واستقرت على رأسه عمامةٌ لا أجرؤ أن أقول إنها بيضاء لفرط ما علاها من أوساخ غيّرت لونها، تحتها قبعة حمراء مشبعة شحماً وعرقاً. أمّا أنا والسيد كوندامين فقد كان نصيبُ كلّ منا عمامةً سوداء وقفطاناً فوقه جبة من شعر الجمل، نستوي في ذلك مع الراهب. ولم يُسمح لنا بأن نحمل سيوفنا ولا حتى مسدساتنا، بل قالوا لنا إن العرب إذا أمسكوا بنا وبيدنا السلاحُ واتّضح لهم أنّنا إفرنج فلن يُبدوا حيالنا أدنى رحمة.

الانطلاق من الناصرة

غادرنا الناصرة عند العاشرة ليلاً مرتدين تلك الثياب، يخفرنا خمسة رجال مسلّحين بالبنادق

والرماح، ودليلٌ يتكلم إيطاليةً رديئة. وكنا نلتزم الصمت حين نمرّ بجوار القرى حتى لا نثير انتباه السكان، فإذا خلا المكان راح الأب هيو يروي لنا بصوتٍ هامس مغامراتِه في بيت المقدس، وما تعرّض له خلال زيارته السابقة من سوء معاملة، غيرَ مُخفٍ تَخَوُّفه من تكرار الأمر اليوم. وهكذا سرنا متخفّين تحت جنح الظلام كاللصوص، محدِّثين أنفسنا أنّ من حسن الحظ أنه ليس بيننا أي امرأة.

الأجراف

عند الحادية عشرة ليلاً مررنا بالأجراف، وهي المكان الذي أراد اليهود أن يلقوا منه السيد المسيح إلى الأسفل، لكنّه اختفى من أمامهم بمعجزة. والمكان عبارة عن جبلين متقابلَيْن تمرّ بينهما طريق ضيقة عميقة، تحفّها من الجانبين صخور مدبّبة.

نزلنا عند منتصف الليل عن جيادنا وسط الحقول، فنمنا لساعةٍ، ثم استيقظنا فركبنا وتابعنا المسير حتى التاسعة صباحاً، حيث توقّفنا تحت أشجار زيتون بإزاء قريةٍ كان خفراؤنا يحملون رسالة للآغا المقيم بها، فتركناهم يذهبون إليه، وجلسنا لتناول بعض الزيتون والبيض المسلوق الذي كنّا قد حملناه معنا من الناصرة. فلما عاد رجالنا سارعنا إلى الركوب وتابعنا سيرنا، حيث وصلنا في الحادية عشرة صباحاً إلى نابلس، أو السامرة قديماً.

ذهب بنا الدليل إلى عند الآغا الذي أمر بإعطائنا غرفة لصيقة بالديوان، وأرسل إلينا خبزاً وبطيخاً وزبيباً للغداء. ولمّا كان السيد كوندامين يعتزم مواصلة المسير نحو بيت المقدس في اليوم نفسه فقد أرسل إلى الآغا من يبلغه بأن يوفر لنا خفراء يواصلون الرحلة معنا؛ لأن الذين جاؤوا برفقتنا لم يكن مسموحاً لهم الذهاب إلى أبعد من تلك النقطة، فأجابه الآغا بأنه لا يملك أن يفعل ذلك؛ لأنه في حرب مع جيرانه من القرى المجاورة، مما يجعل في الخروج خطراً علينا، وهو ينصحنا بأن ننتظر حتى نخرج في برفقة قافلة.

لم يَرُق هذا الاقتراح للسيد كوندامين. والحق أنّ الرجل لم يكن مهتماً بسلامتنا بقدر ما كان يطمع في الحصول على بعض المال منا. بل لقد أوحى إلى دليلنا بأنه يريد جنيهاً ذهبياً إيطالياً عن كلّ واحد منا ثمناً للعبور، فأجابه السيد كوندامين قائلاً إننا لا نحمل معنا شيئاً من المال، بل مالنا كله مع السيد نائب الأراضي المقدسة الذي له به صلة، وإنه إذا كان مرورنا من هناك يجعلنا مدينين له بشيء فإنّ ماله سيَبلُغه، لكن إذا لم نحصل على ما نريده فإنّنا سنعود إلى الناصرة. فلما رأى أنه غير حاصل منا على شيء أرسل يقول إنّ علينا انتظار الغد لأنّ هناك قافلة متّجهة إلى بيت المقدس نستطيع مرافقتها. ولم يكن

لنا من خيار غير البقاء، فبقينا إلى الغد منتظرين. وطلبنا أن نزور المدينة، فصدر الأمر فوراً إلى أحد الإنكشارية بمرافقتنا.

نبع نابلس

ذهبوا بنا إلى نبعٍ رائع الجمال يسقي أحياء المدينة جميعاً، وينزل إليه الزائر من خلال سُلّم من اثنتي عشرة درجة، يُفضي به إلى فناءٍ مُرَبَّع من نحو خمس وأربعين قدماً، يتوسَّطه النبع الذي يبلغ محيطه نحو أربع أقدام. والفناء عبارة عن مغارة جميلة القبة تبدو موغلة في القِدم، ومنه تخرج قنوات تسوق الماء إلى أحياء المدينة كما أسلفنا ذلك.

في وصف مدينة نابلس

تقع هذه المدينة على سفح جبل، وتخرج من أقصى جنوبها منابع من المياه تنشقّ عنها الجبال والصخور، فتجري جداولَ في الأخاديد، ثم تلتقي في نهر صغير ينحدر من أعلى السفح إلى الوادي مخترقاً المدينة من أقصاها إلى أقصاها، حيث يشتقّون منه سواقي لريِّ البساتين الكثيرة. وفي ما عدا ذلك فليس في المدينة شيءٌ يسترعي انتباهَ الزائر.

الطريقة المتبعة في تقديم الطعام عند الأتراك

بعد ساعة من عودتنا إلى بيت الآغا حيث كان وقت العشاء قد حان، رأيت زنجياً يدخل إلى قاعة الديوان الملاصقة لغرفتنا، فيفرش على أرضيّتها غطاء مستديراً متّسخاً، ثم يأتي بأربعة وعشرين صحناً، هي أربعة أطباق مكرّرة ست مرات لكل واحد منها، فيقف وسط الغطاء المتّسخ بقدميه العاريتين، ويضع الأطباق تِباعًا فوقَه. فلما انتهى كان الغطاء المتّسخ قد اكتسى صحوننا، عدا المنطقة التي كان رئيس الخدم هذا واقفاً فيها، فما كان منه إلاّ أن قفز بخفة إلى الخارج، ثم وضع في مكان قدميه صحناً مليئاً بالأرز، وهو أكلة تركية يعرفونها هناك باسم «بولو»، ووضع أمام الآغا ربع خروف مشوي. أما باقي الأطباق فكانت عبارة عن لحم مهروس على شكل كرات بحجم تفاحة صغيرة، وبيض مطبوخ بزيت رديء، وزبد يتركونه حتى تجتمع فيه كلُّ المساوئ ثم يأكلونه، وعدد آخر من الأطباق التي لم ندرِ ما هي.

فلما أُعدّت المائدة جاء من يدعونا إلى مشاركة الآغا طعامه، فقبلنا شاكرين، وجلسنا ثلاثتنا حول

السماط إلى جانب عدد آخر من المدعوين، وكذلك خفراؤنا والدليل، فكنا في المجموع أكثر من خمسة عشر رجلاً حول الأطباق، من دون سكاكين، ولا ملاعق، ولا حتى مناديل، بل ملعقتان من الخشب فقط طويلتا المقبض لا تصلحان لشيء.

وقد كانت أمامنا رقائق من الخبز غير مكتمل الطهي، جاء من وضع فوقها قليلاً من البولو. فأما السيد كوندامين فإنّه لمّا رأى ذلك فَقَدَ آخرَ ما بقي له من شهيةٍ للطعام، وأما أنا فقد تصبَّرت وتذوقت من جميع الأطباق، فوجدتها كلها في منتهى الرداءة. ولما كنت جائعاً لا بدّ لي من شيء أتبلّغ به فقد مددت يدي إلى قطعة الخروف الموضوعة أمام الآغا، فانتزعت منها ضلعين كانا هما كلّ ما تناولته تلك الليلة من طعام.

الأتراك لا يشربون أبداً في أثناء الأكل، ولذلك فقد انفجروا ضاحكين حين طلبت شيئاً أشربه. ثم جيء بدورق من الماء، فدُفِع إليّ وحدَه من دون كأس، وهو آنية يشرب منها الجميع مباشرة، أي إنّ المطلوب مني كان أن أشرب من إناء ماءٍ لعلّ خمسين شارباً أو أكثر قد شربوا منه من قبلُ...

وقد عانيت كثيراً بحكم أني لم أكن معتاداً على الأكل جالساً على الأرض، فرحت اثني رجلاً وأفرِد أخرى أريحها بالتناوب، فلم أتنفس الصعداء حتى قام الآغا وقمنا جميعاً. ولما انفرط عقدُنا التأم حول البساط عقدٌ ثانٍ من الآكلين، تلاه ثالث، وهكذا دواليك.. فلم يُرفع السماط حتى تناول آخر خادم في الدار عشاءه. ورأيت أنّ كلّ من قام عن الأكل يمضي إلى حيث يغسل يديه، فقلت لنفسي إنّه كان حَرِيًّا بهم، إذ يأكلون بلا شوك ولا ملاعق ولا سكاكين، أن يغسلوا أيديهم قبل الأكل أيضاً!..

بعد انتهاء كل ذلك جاؤونا بالقهوة والتبغ وبعض الغلايين، ثم انسحبنا إلى غرفتنا حيث لا فراش سوى الحُصُر الملقاة على الأرض، والتي اتخذناها فراشاً ولحافاً.

ولما كان الغد نزل بالآغا ضيوفٌ، فأرسل يطلب منا أن نحمل متاعنا ونذهب إلى بيت أخيه حيث سنجد مكاناً ننزل فيه، لأنّه في حاجة إلى غرفتنا كي يُنزل فيها ضيوفه. وذهبنا فعلاً إلى عند الأخ الذي بقينا عنده حتى انتصف النهار، فلما حان وقت الغداء أرسل إلينا بطيخاً وزبيباً. وعند الواحدة زوالاً جاء من أخطرَنا بالاستعداد للحاق بقافلةٍ كانت تتجمّع في قرية تدعى «بيتا» على بعد نحو خمسة فراسخ من نابلس.

الانطلاق من نابلس

خرجنا من المدينة عند الساعة الثانية بعد الزوال، فلما كنّا على بعد نحو ستمئة خطوة منها مررنا ببئر يعقوب.

بئر يعقوب

البئر اليوم خَرِبَة، لكن - على ما يبدو - كان هناك فيما مضى بناءٌ فخم يتصب بجوارها، تشهد به الأعمدةُ والأساسات وبعض الحيطان التي ترسم شكلاً دائرياً واسعاً من حولها. وموقع البئر إلى يسار السائر من نابلس إلى بيت المقدس على بعد نحو مئتي خطوة من الطريق.

تابعنا المسير بعد ذلك فوصلنا إلى قرية «بيتا» عند السادسة مساء، حيث وجدنا قسماً من القافلة قد سبقنا إلى التجمّع هناك، فنزلنا تحت أشجار زيتون، وجلسنا بانتظار قائد القافلة الذي لم يكن قد وصل بعد، والذي عَلِمنا أنّ آغا نابلس قد أوصاه بنا خيراً.

نزولنا في «بيتا»

جاء قائد القافلة فبادر إلى استضافتنا في بيته. وللرجل هناك بيت وزوجة، وله مثلهما في نابلس. فلما بلغنا البيت أدخل خيولَنا إلى باحةٍ في أقصاها غرفةٌ مسقّفة بأغصان وأوراق يابسة، هي خير غرف البيت جميعاً، وقد فرشها مضيفُنا بساطٍ وأنزلَنا فيها، وعند وقت العشاء قدَّم إلينا خيرَ ما استطاع من الطعام، وشرَّفَنا بمشاركتنا إيّاه. وقد قدّموا لنا في البدء بطيخاً، وهو أفضل الأكل عند العرب، وهو كبير الحجم بلبّ أحمر شهي جداً، بعد ذلك جاؤوا ببيضٍ مقلي، ثم تينٍ مجفّف وزبيب.

بعد الأكل انسحب الرجل إلى جوار زوجته التي لم يُكتب لنا شرف رؤيتها، وتركنا في غرفتنا التي كانت عشاً حقيقياً لبراغيثَ لم تدعنا عضاتها نذوقُ للنوم طعماً، حتى انتهى بنا الأمر إلى أن استسلمنا، فأخلينا لها المكان وخرجنا إلى الفناء حيث بقينا نروح ونجيء[1]. وعند الساعة الحادية عشرة ذهبنا إلى باب غرفة مضيفنا نطرقه، فاستيقظ الرجل وخرج ينظر إلى النجوم، حيث استنتج منها سريعاً أنّ الوقت لا يزال مبكراً، وأراد أن يعود إلى النوم ساعة أخرى أو ساعتين، لكننا ألححنا عليه قائلين إن الاستعداد وشَدَّ الرحال على الجمال سيتطلب وقتاً، مما يعني أنّنا لن ننطلق قبل الساعة التي ينوي هو

(1) إذا كانت الشياطين تسكن أجسام هذه الحشرات كما يقال، فيا ويل من تركبه هذه الشياطين! فقد غلبتنا بكل سهولة ويسر، وبيّنت لنا كم نحن ضعاف لا حول لنا ولا قوة.

الإقلاع فيها، فنزل عند رأينا، وأرسل من يعلم المسافرين بالاستعداد للرحيل.

الانطلاق من «بينا»

التحقنا بالقافلة حيث كان الرجال يشدّون الرحال على ظهور الجمال، وقد قضوا في ذلك ساعة كاملة، فلم نقلع إلاّ عند منتصف الليل، فسار بنا دليلنا من خلال طريق منحرفة لنلحق برأس القافلة. ولمّا كانت الجمال تسير ببطء عكس خيولنا فإننا لم نجد صعوبة في السير أمام الركب، ممّا مكّننا من الاستسلام قليلاً للنعاس لتعويض ما أضاعته علينا البراغيث من نوم.

حجم القافلة

كانت القافلة تتكوّن من ثلاثمئة جمل، فيها ذو السنام الواحد وذو السنامين، ونحو مئة وعشرة من الحمير والبغال، ونحو مئة من الراجلين. وأمام الرّكب سار جملٌ مهيب يحمل لواءً أزرق وأبيض بخطوط حمراء، كما تفعل القوافل جميعاً في تلك البلاد. والرجال جميعاً، راكبين وراجلين، مسلّحون بالبنادق والمسدسات والرماح والسيوف والعصيّ والخناجر، غير أنّ ذلك لم يمنع أن أوقفونا على بعد نحو فرسخين من بيت المقدس، في قرية تدعى «الرامة»، حيث ألزمنا أهل البلد بدفع إتاوة للمرور بحجة أننا إفرنج. وكان هناك رجل وغلام في نحو السادسة عشرة قيل لهما في ما يبدو إننا إفرنج وإنّ لهما الحق في استخلاص إتاوة منا. كنا حينها نحو عشرين فارساً نسير على بعد ربع فرسخ أمام القافلة، فلما لم يستطع هذان اللّصّان اللّحاق بنا انقضّا على أحد الرهبان فضرباه حتى أنزلاه عن حصانه ثم قفز الرجل فوق ظهره وسار يتبعنا والغلام يجري خلفه راجلاً. فلما أدركانا تَرَجَّلَ الراكب وتوجّه إلينا وقد بدا أنه عرفنا رغم تنكُّرنا أو أن أحداً قد دلّه علينا، فصرخ بنا أن نرجع على أعقابنا. وكنت أنا غارقاً في تأمّلاتي وتسبيحي، فلم أعر انتباهاً لما كان يقوله ذلك الرجل الذي لحق بنا على ظهر جواد الراهب. لذلك دُهشت حين رأيته يقترب مني مهدّداً بعصاه، فما كان مني إلاّ أن بادرتُ أتهيّأُ للنزول عن جوادي كي أُلقِّنَ المعتدي السافل درساً، لكنَّ مُرافِقَنا الراهب، الذي كان يعلم عن عادات تلك البلاد ما لم نكن نعلم، نصحني بالتزام الهدوء قائلاً إني إن ضربت هذا الرجل فسأجعله يستعدي علينا بصرخة واحدة أكثر من ثلاثمئة رجل يحيطون بنا، فيقتلوننا بلا رحمة، وإنه حتى وإن لم يقع شيء من ذلك فلا بد أن يكون للأمر انعكاس سيّئ على الرهبان المقيمين في الأراضي المقدسة.

وبينما كان ذلك يقع لي كان الغلام قد انطلق صوب السيد كوندامين الذي كان على بعد نحو مئة خطوة أمامنا، والذي كان ممسكاً بكتاب يقرأ فيه، فلم يتنبه إلى ما كان يحدث حوله، لذلك اندهش أيّما

اندهاش لرؤية هذا الغلام ينبعث فجأة أمامه وهو يحمل حجراً في كل يد، صارخاً به أن يرجع على أعقابه وإلاّ رجمه. وقد أراد أن ينزل ليؤدّب الفتى، لكن رفاقه نصحوه بما نصحه به الراهب، فأحجم، ورجعنا على أعقابنا نحو عشرين خطوة. عند ذلك جاء قائد القافلة، الذي يبدو أنه كان متواطئاً مع المهاجمين، فسأل عما يقع وهو يصطنع الدهشة. فلما أخبرناه قال إنه لا يملك أن يمنع هؤلاء الناس من إلقاء القبض علينا إن لم نؤدِّ إليهم ثلاثة قروش ثمناً للمرور. فلما سمع السيد كوندامين ذلك قال إننا لا نملك نقوداً، وإذا كان هناك من أحد يريد أن يؤدّي عنا ذلك فإنه سيتكفّل بإرجاع الدَّيْن. حينئذ تطوّع ابن أحد المشايخ فقدم خنجره ضمانة لدينا، وبذلك استطعنا الإفلات من أيدي هؤلاء المدّعين، فتابعنا طريقنا لنصل إلى بيت المقدس في اليوم نفسه؛ العشرين من شهر غشت / آب، عند الثانية بعد الزوال.

وصولنا إلى بيت المقدس

ترجّلنا عند باب دمشق، حيث انخرطتُ مع السيد كوندامين في الصلاة، بينما ذهب رفيقنا الأب «هيو» مع الدليل إلى الرهبان ليخبروهم بمجيئنا. وفيما نحن راكعان نصلّي بقي الحرس من الإنكشارية يستهزؤون بنا وهم يروننا مستغرقين في الصلاة أمام باب مدينتهم. ومضت ثلاثة أرباع الساعة قبل أن يأتي ترجمان الدير بصحبة جنديين من الإنكشارية والأب «هيو» لإدخالنا المدينة، حيث اصطحبونا إلى دير رهبان فرنسيسكانيين يعرف باسم «دير المخلّص»؛ إذ يُمنَع على كل حاجّ مسيحيّ بقصد بيت المقدس أن يدخل المدينة من دون إذن من الآغا، وإلاّ عرّض الرهبان أنفسهم لشديد العقاب.

فلما وصلنا بادَرنا بالذهاب لزيارة كنيسة القيامة. ومفاتيح الكنيسة بيد الأتراك، وكل مسيحيّ يدخل إليها للمرة الأولى ملزمٌ بأداء خمسة وعشرين قرشاً ونصف القرش، وبعدها له أن يدخل وقتما شاء، شريطة أداء قرش مديني واحد لحارس البوابة التركي عند كل زيارة.

وصف كنيسة القيامة

الكنيسة واسعة فسيحة، لا يدخل إليها ضوء النهار إلاّ من فتحة القبة المحميّة بأسلاك من البرونز، وتحت القبة قبر السيد المسيح.

قلعنا نعالنا قبل الدخول إلى المكان المقدس. والداخل إليه يعبر من ممرّ يرتفع نحو قدم عن مستوى الأرض، وحول الممرّ من الجانبين تنتصب مصطبة من نحو قدمٍ ونصفِ القدم علواً، يجلس عليها الرهبان المساعدون في أثناء القداس الذي لا يحضره هناك إلاّ القساوسة اللاتينيون.

مصلى الملاك

من هناك يدخل الزائر إلى مصلّى الملاك، الذي يُدعى بهذا الاسم لأنه المكان الذي أخبر فيه الملاك مريم العذراء ومريم المجدليّة ومريم الثالثة بقيامة السيد المسيح من قبره. وفي المصلّى مذبحٌ وثمانية عشر مصباحاً، وفي أقصاه يقع مدخل القبر المقدَّس، تقوم أمامه مصطبة من حجر بعلوّ قدم ونصف القدم عن الأرض، هي التي كانت قاعدة للحجر الذي كان يسدّ مدخل القبر، وعلى هذه المصطبة كان يجلس الملاك حين جاءت المريمات الثلاث[1] إلى القبر بحثاً عن جسد السيد المسيح.

مصلّى القبر المقدس

دخلنا بعد ذلك إلى المكان المقدس من باب لا يتجاوز ارتفاعه ثلاثة أقدام في قدمين عرضاً. والمصلَّى صغير بحيث لا يكاد يتّسع لأربعة من المصلين وكاهن يؤمّ الصلاة. على يمين الداخل المكانُ الذي كان جسد السيد المسيح مسجًّى عليه، ليس داخل صندوق كما يتصوّر كثير من الناس، بل في فجوة محدَثة في الحجر، تتصب في داخلها طاولة من الحجر نفسه كانوا يضعون عليها أجداث الموتى، ثم يُغلقون المدخل بحجر من الذي كانت المصطبة موضوع حديثنا قاعدة ودعامة له. وهناك في داخل المصلى سبعة وأربعون مصباحاً، كلّها مهداة إلى الكنيسة من قبل ملوك وأباطرة فرنسا وإسبانيا والبرتغال، بينها واحد من الذهب رائعُ الجمال. والمكان كلّه مكسوّ بالرخام الأبيض، وتحيط به من الخارج عشرة أعمدة كلّها من الرخام نفسه، ويعلوه سطحٌ مستوٍ تتوسّطه قبة بارتفاع نحو عشرة أقدام مكسوّة بالرصاص، تقوم على اثني عشر عموداً لونها أحمر قانٍ، مصفوفة عمودين بجانب عمودين، مكونة ستة أقواس تتدلّى من كل واحد منها ثلاثة مصابيح.

مذبح كنيسة القيامة

المذبح في يد اليونان، وهو محاط بأعمدة سميكة، وشكله دائري، وفيه ثريا هائلة الحجم تحمل أربعاً وستين شمعة أهداها إلى الكنيسة دوق من روسيا. ولما كانت أكبر من أن توضع داخل المصلى فقد علّقوها في المذبح.

---

(1) مريم العذراء، ومريم المجدلية، والمرأة الثالثة المعروفة باسم «مريم الأخرى» (المترجم).

عن رحلة «تيفنو»

يقول «تيفنو» إن هناك أسفل البلاط حجراً في وسطه ثقب يزعم المشارقة إنه مركز العالم، بحكم أنه يوجد في المكان الذي رقد فيه السيد المسيح، كما يوجد ذلك في الكتاب المقدّس. وقد يكون هذا صحيحاً، غير أنّ الراهب الذي كان برفقتنا لم يسبق له أن سمع عن الأمر، كما أننا لم نر هناك أي حجر مّما يصف الرحالة.

بعد زيارتنا للقبر المقدس مذبح الكنيسة، طفنا بباقي المصلَّيات التي بُنِيَت في أماكن وقوع المعجزاتِ الرئيسَة في ديانتنا.

وقد بدأنا بمصلى التَّجَلِّي الذي يقوم على خدمته رهبان من اللاتين، ويُعرف بهذا الاسم لأنه يقوم في المكان الذي تجلّى فيه السيد المسيح للسيدة العذراء بعد معجزة القيامة. والداخل إليه يجد أمامه ثلاثة مذابح متقابلة، أوسطها مقام على اسم السيدة العذراء، والذي إلى اليسار على اسم الصليب المقدس، والذي إلى اليمين على اسم عمود الجَلد. وفي فجوة صغيرة في الحائط مغلقة بشباك حديدي على مقربة من هذا المذبح توجد قطعة من العمود الذي رُبط إليه السيدُ المسيح قبل جلده في قصر حاكم بيت المقدس «بونس بيلاطس». وتبلغ قطعة العمود نحو قدمين ونصف القدم طولاً، ولا يُسمَح بلمسها باليد، بل يُعطَى الحجّاجُ قضيباً يقرعونها به عن بُعد. ووراء هذا المذبح تقع مساكن الرهبان.

عند الخروج من هذا المكان ينزل الزائر سلّماً من ثلاث درجات، فيجد أمامه بين أحجار البلاط حجرين مستديرَيْنِ يقال إنّ أحدهما يوجد في المكان الذي تجلّى فيه السيد المسيح لمريم المجدلية، ويسمّونه «حجر لا تلمسيني»، فيما يوجد الآخر في المكان الذي كانت مريم المجدلية تقف فيه. وفي مقابل هذين الحجرين مصلى صغير على اليسار منحوت في الصخر يسمّونه مصلى مريم المجدلية، ولا يقف أمامه أي حاجز حجريّ مما يصفه الرحالة «تيفُنو».

مصلى سجن السيد المسيح

انتقلنا بعد ذلك إلى مصلّى يعرف باسم مصلى سجن السيد المسيح؛ لأنه يقوم في المكان الذي سجنوه فيه بينما كانوا يحفرون لنصب عمود الصلب.

مصلى لوحة الصليب[1]

زُرنا بعد ذلك مصلى لوحة الصليب المقدّس، وهو مكانٌ مظلم لا يكاد الزائر يتبيّن فيه شيئاً. ويقولون إن لوحة الصليب المقدس كانت لِزمنٍ طويلٍ محفوظةً فيه.

مُصلّى التقسيم

المصلّى التالي هو المعروف باسم مصلى التقسيم، وقد سُمّي كذلك لأنه يقوم في المكان الذي اجتمع فيه الجنود ليقترعوا على ملابس السيد المسيح حين اقتسموها فيما بينهم.

مصلى القديسة هيلانة

نزلنا بعد ذلك سلّماً من ثمانٍ وعشرين درجة، يفضي إلى مصلى القديسة هيلانة، وهو مصلّى جميل ذو قبّة ترتفع على أربعة أعمدة من الرخام الأبيض.

مصلّى مثقب الصليب المقدس

ينزل الزائر من هناك سلّماً آخر من ثلاث عشرة درجة منحوتة في صخر تل الجلجثة[2]، يُفضي إلى مصلّى المثقب. وكان هذا المكان في الماضي بئراً عميقة يلقون فيها بجثث المصلوبين، وكان النبي إرميا يسمّيه وادي الجثث، وفيه يرى الزائر الشقّ الذي حدث في الصخر حين أسلم السيد المسيح الروح[3].

مصلى عمود العتاب Impropères

بعد ذلك انتقلنا إلى المصلّى المعروف باسم مصلّى عمود العتاب، وهو مغلق بشباك من حديد، وفيه يُحفظ جزء من العمود الذي جلس عليه السيد المسيح في باحة قصر الحاكم يحيط به الجنود بعد أن جلدوه وألبسوه تاج الشوك. ويقوم على خدمة هذا المصلى الرهبان الأرمن لا الأحباش كما يدّعي «تيفُنو»، اللّهم إلاّ إذا كان الأمر كذلك يومَ زار هو المكان.

---

(1) هي اللوحة التي كانوا يعلّقونها على جسد المصلوب، تحمل اسمه، وتبيّن نوع جريمته (المترجم).

(2) هي الجمجمة بالعبرانية، وسمي المكان بهذا الاسم لأنهم عثروا فيه على جمجمة يعتقدون بأنها لآدم عليه السلام. والمكان المعروف بهذا الاسم هو الذي يعتقدون بأن السيد المسيح صُلب فيه، وقد بنى عليه الإمبراطور الروماني قسطنطين الأول الكنيسة المعروفة باسم كنيسة القيامة (المترجم).

(3) هذا وغيره مما يرد في هذا الباب ننقله كما هو، على اختلاف مع مؤداه، (المترجم).

سُلَّمُ الآلام

قادونا بعد ذلك إلى أسفل سلمٍ درجاتُه السفلى من الخشب فيما الباقي منحوت في الصخر، فخلعنا نعالنا لنرقى درجات السلم الستَّ والعشرين المؤدّية إلى تل الجلجثة، حيث يجد الزائر مصلَّيَيْنِ يفصل بينهما العمودان اللذان يحملان القبة. والمصلّيان مكسوّان برخام من ألوان مختلفة، والذي يقع على يسار الداخل يقوم في المكان الذي نُصِبَت فيه أعوادُ الصليب، وتوجد فيه مصطبة من الرخام بطول عشرة أقدام وعرض ستة، في وسطها ثقب يدلّ على المكان الذي كان الصليب مغروزاً فيه، وهو ثقب بقُطر قدم وثماني بوصات وبعمق قدمين، تزيّنه صفيحة من الفضة على شكل شمس. كما يرى الزائر ثقبي العمودين اللذين صُلب عليهما الرجل الطيّب واللصّ على جانبي السيد المسيح. والثقوب الثلاثة لا تشكّل خطاً مستقيماً بل ترسم مثلثاً. وبين الثقبين اللذين كان عمودا صلب السيد المسيح واللصّ مغروزين فيهما يرى الزائر الشقَّ الذي حدث في الصخر لحظة الوفاة، وهو بعرض قدم واحدة.

أما المصلّ الآخر فيُعرف باسم «مصلى الصلب»؛ لأنه يقوم في المكان الذي وُضع فيه الصليب أرضاً ليسمَّر عليه السيد المسيح قبل أن ينقلوه وهو فوقه إلى حيث الثقب الذي غرسوه فيه، على بعد نحو سبع خطوات. ذلك هو المكان الذي سال فيه دمُ مُخلِّصِنا السيدِ المسيح من أجل خطايانا.

وقريباً من هناك يقوم مصلى صغيرٌ يقولون إنه في المكان الذي كانت السيدة العذراء والقديس يوحنا يقفان فيه بينما كان الجنود يصلبون السيد المسيح. ومدخل هذا المصلى يوجد خارج الكنيسة.

مصلّى سيدة الرحمة

بعد نزولنا من تل الجلجثة ذهبنا لزيارة مصلّى سيدة الرحمة، حيث يرقد جثمانا مَلِكَي بيت المقدس «غودفروا دي بويون»، وأخوه «بالدوان». وقبر غودفروا على يمين الداخل، وهو مبني على هيئة ظهر حصان، تحمله أربعة أعمدة، ومكتوب عليه بالحرف القوطيّ ما معناه على وجه التقريب: «هنا يرقد جثمان الملك غودفروا دي بويون، الذي قهر المسلمين وأعلى من شأن المسيحية.. فليحيَ مع السيد المسيح في مملكته، آمين».

أما قبر «بالدوين» فيقع على يسار الداخل، وهو مبني مثل سابقه، ويحمل بدوره لوحة كتب عليها بالخط نفسه اسمه وذُكرت بعض مناقبه.

وفي أقصى المصلى قبر من الرخام السمّاقي يقولون إنه قبر النبي «ملك صادق» (Melchisédech)[1]، ويرى الزائرُ خلف مذبح المصلى تحت المكان الذي غُرز فيه عمودُ الصليب شقّاً في الصخر يقولون إنه هو الذي عُثر فيه على جمجمة آدم عليه السلام، ومنه اسم الجلجثة، الذي يعني الجمجمة باللّسان العبريّ. ويقولون إنه هو المكان نفسه الذي احتضنت فيه السيد العذراء جسد السيد المسيح بعد أن أنزلوه من على عمود الصلب، ولذلك سمّي المصلى بمصلّى سيدة الرحمة.

قبور أبناء الملك بالدوين

على يسار مدخل المصلى توجد قبور أبناء الملك بالدوين الأربعة، وهي كلها من المرمر الأبيض، وعليها لوحة أولها مقروء تَذكُر صفة أصحاب القبور الأربعة وأنهم أبناء الملك بالدوين، لكن بقية اللوحة غير مقروءة؛ لأن الأتراك تعمّدوا العبث بتلك القبور كلها، وكأنهم بذلك يريدون محو كل ذكر للملوك الإفرنج.

حجر المسح

على مقربة من هناك يوجد حجرٌ يقولون إنه هو الذي وَضَع عليه العربيُّ «يوسف الرمّي» جثمان السيد المسيح ومسحَه بعد أن أنزلوه من على الصليب. والحجر بطول سبعة أقدام في عرض ثلاثة، وهو محاط بإطارٍ من الرخام؛ لأن الحجاج كانوا في الماضي يقتطعون منه أطرافاً يحملونها معهم على سبيل التَّبَرُّك. وهو مغطى بشُبَّاك من حديد ومزين بأحجار ملوّنة حتى لا يطأه أحد، لأنه لا يرتفع عن الأرض بأكثر من عشر بوصات.

أمام في هذا المكان فيوجد سلّم يُفضي إلى كنيسة الأرمن، حيث يوجد قبرا «نيقوديموس» و«يوسف الرمّي»، وأمام كلّ منهما عُلّق مصباح.

في داخل هذه الكنيسة توجد مساكن للرهبان، يقيم فيها المقيمُ منهم ثلاثةَ أشهُرٍ ثم يرحل تاركاً مكانه لغيره ليقضي بدوره ثلاثة أشهر في جوار القبر المقدّس. ولليونان والأرمن أيضاً مساكن على شكل أحياء ملحقة بالكنيسة.

---

(1) الأمر بشخصية يجمع المؤرخون على غموضها، ويذكر بعضهم أنه كان ملكا لمدينة «سالم» جاءه الوحي، وآخرون أنه كان من الأحبار اليهود، ويذكر آخرون غير ذلك (المترجم).

بيت السيدة آنّا

خرجنا من هذا المكان المقدس فذهبنا إلى بيت السيدة آنّا، حيث تقوم شجرة زيتون يقولون إنها هي التي ربطوا إليها السيد المسيح بانتظار المحاكمة. وللأرمن أيضا كنيسة في هذا المكان.

بيت «قيافا»

انتقلنا بعد ذلك إلى جبل صهيون، حيث زرنا «بيت قيافا» الذي يقوم على خدمته الأرمن كذلك، حيث لهم فيه كنيسة يوجد خلف مذبحها الحجرُ الذي وُضع عليه جسد السيد المسيح في القبر المقدّس، وهو نحو ست أقدام ونصف القدم طولاً، وبعرض ثلاث أقدام، وسُمك قدم واحدة، وهو مغطّى بالجبس مخافة أن يقتطع منه الحجاج أطرافاً يحملونها معهم للتبرُّك بها. وعلى يمين الداخل إلى الباحة يوجد السجن الذي أودعوا به السيد المسيح عندما كان قيافا رئيس الكهنة والباقون يتشاورون في شأن ما سيصنعونه به.

كنيسة القديس «جاك»

في طريق عودتنا إلى الدير توقفنا عند كنيسة القديس جاك التي يخدمها الأرمن، وهي كنيسة جميلة تبدو عليها آثار العناية والاهتمام. وعلى يسار الداخل إلى الكنيسة يوجد مصلّى في المكان الذي قطعت فيه رأس القديس جاك الأصغر بأمر من الإمبراطور هيرودوت. وباب المصلّى وكذا الأبواب جميعاً مزينة بالأصداف، ويُغلِق بابَ المذبح شُبّاكٌ من الحديد متقَنُ الصنع. وفي هذه الكنيسة عدد كبير من المصابيح المعلقة بحبال مزينة ببيض النعام، وفيها قطعة من الصليب المقدس.

خرجنا من هذا المكان فعدنا إلى الدير حيث تناولنا طعام العشاء مع الرهبان.

في الرابعة من فجر يوم الغد أيقظَنا أحد الرهبان ليخبرنا بأنّ الخيل جاهزة لتحملنا إلى بيت لحم، وعند الخامسة ركبنا من أمام باب يافا حيث كانت الخيل تنتظرنا، إذ ليس من المسموح للمسيحيين ركوب الخيل داخل مدينة بيت المقدس، ولو فعل مسيحي ذلك لألقوه عن ظهر جواده قائلين إن الكلاب لا تركب خيولاً، ذلك أنهم ينعتون المسيحيين بالكلاب.

مررنا في طريقنا بحوض بيتسابيت زوجة أوريا، وهو المكان الذي رآها داوود تسبح فيه فأغرم بها.

قرية شوري السوء

بعد مرورنا بالمسبح وعلى بعد نحو نصف فرسخ يرى المسافر إلى شماله قرية صغيرة تدعى «قرية شوري السوء»؛ لأن اليهود اجتمعوا هناك للتآمر على السيد المسيح واتّخذوا القرار بقتله.

وعلى بعد مئة خطوة من الطريق تنتصب إلى اليمين شجرةُ زيتونٍ غُرِست في المكان الذي كانت تقوم فيه شجرة البطم التي انحنت لتظلّل السيدة العذراء حين جلست ترتاح عند جذعها.

بئر المجوس

مررنا بعد ذلك بالبئر التي كان المجوس جالسين قربها حين رأوا النجمة من جديد بعد أن كانوا قد أضاعوها حين دخلوا بيت المقدس.

بيت النبي «حبقوق»[1]

على بعد ربع فرسخ من هناك تبدو على يمين السائر الدار التي كان فيها النبي حبقوق حين جاء الملاك ليحتمّله من هناك ماسكاً إياه من شعره، ويذهب به إلى النبي دانيال في حفرة الأُسود كي يقدم له الطعام.

الدير اليوناني

غيرَ بعيدٍ على يسار الطريق يوجد ديرٌ يوناني مقام باسم النبي إيليا، وهناك صخرة عليها أثرٌ يشبه أثر جسم الإنسان، يقولون إنه من أثر جسم النبي إيليا الذي كان يتخذها مضجعاً.

حقل الجلبان

واصلنا طريقنا فرأينا بعد قليل على شمال الطريق حقل الجلبان، وهو موضع يدعوه أهل البلاد بهذا الاسم لأن السيدة العذراء وجدت فيه رجلاً يزرع الجلبان في طريقها من بيت المقدس إلى بيت لحم، فسألته عما يزرعه، فأجاب قائلاً إنه يزرع أحجاراً، فنمت نباتات الجلبان في حقله على هيئتها المعروفة، لكنه عند الحصاد لم يجد في الأغلفة إلاّ أحجاراً. وقد وجدنا منها في المكان ما يشبه ذلك.

---

(١) هو ثامن الأنبياء الاثني عشر (المترجم).

بيت البطريرك يعقوب

تقوم على جانب الطريق إلى اليمين على بعد نحو مئة خطوة من هناك أطلال بيت البطريرك يعقوب، وهي متلاشية لا يكاد يتبيّن منها شيء، حتى لَيحسبها الرائي مَقلَعًا للأحجار لولا ما بقي هناك من أساسات بعض الجدران.

قبر راحيل

على بعد ربع فرسخ من هناك يوجد قبر راحيل الجميلة، الذي قال عنه الرحالة «تيفُنو» وكثير غيره إنه منحوت في صخر يفلُّ الحديدَ من صلابته. وقد عاينّاه فوجدناه يبدو جديداً كأنه حُفِر بالأمس، والأتراك يستعملونه اليوم مسجداً.

بئر داوود

على بعد نصف الربع من الفرسخ من هناك توجد بئر داود، وهي بثلاث فوّهات، على نحو خمسين خطوة إلى شمال الطريق. وتُعرف بهذا الاسم لأن داوود اشتهى أن يشرب من مائها على حين كان جيش عدوه شاؤول ناصباً مضاربه حولها، فتطوع ثلاثة فتية شجعان من جيشه فاخترقوا صفوف العدو وجاؤوه بالماء الذي اشتهاه. فلما جيء بالماء أراقه قائلاً إنه سيشرب من دم أولئك الذين خاطروا بحياتهم لأجل إرضاء نزوة عابرة منه.

الوصول إلى بيت لحم

بلغنا بيت لحم عند الثامنة صباحاً، وهي لا تبعد عن بيت المقدس إلا فرسخين، فاستقبلنا الرهبان هناك خير استقبال، وهم أيضاً من الفرنسيسكانيين. وبعد أن حضرنا القدّاس زرنا الكنيسة وجميع الأماكن المقدسة الموجودة هناك، كما سأذكر ذلك بعد قليل.

بيت لحم

كانت بيت لحم في الماضي مدينة من مدن يهودا، وكانت في ما يُقال حاضرة جميلة فخمة، لكنها لم تَعُد اليوم إلاّ قرية صغيرة غالبيةُ سكانها من اليونان والأرمن الذين يتعيّشون من صلبان وسُبَح يصنعونها ويبيعونها للرهبان والحجاج الزائرين.

الدير

الدير رائع الجمال، وفيه المكان الذي وُلد فيه السيد المسيح، والمكان الذي ترجم فيه القديس جيروم التوراة من العبرية إلى اللاتينية، والمكان الذي حدثت فيه مذبحة الفتية الأبرياء. يقع الدير على مرمى بندقية من مدينة بيت لحم، ويقولون إنه كانت له في الماضي باحتان، أما اليوم فلم يعد هناك أمام بوابة الدير غير ساحة واحدة فيها بئران.

يدخل الداخل إلى الدير من باب صغيرة لا يزيد ارتفاعها عن ثلاثة أقدام وعرضها عن اثنين، تفضي به إلى ساحة صغيرة تقوم مقام المدخل من الكنيسة. وقد كان الباب في ما مضى كبيراً عالياً، لكنهم ضيقوا من فتحته حتى لم يتركوا إلا تلك الكوة الصغيرة حتى يمنعوا العرب من دخول المكان على ظهور خيولهم.

الكنيسة الكبرى

هي كنيسة رائعة الجمال مكسوّة بالرصاص، ذات هيكل بديع محمول على صفين من الأعمدة من كل جانب، على كلّ عمود منها صورة أحد القدّيسين الذين لم يعد الناظر يتبيَّن شيئاً من ملامحهم اليوم. وعلى يمين الداخل يقوم مذبح التعميد اليوناني، وهو رائع الجمال كذلك.

والداخل إلى المعبد يجد أمامه على كلّ من جانبي المذبح الأكبر ما يشبه المصلّى. ويقول «تيفنو» إنّ الحجر الذي تم ختان السيد المسيح فوقه على الجانب الأيمن من المذبح، وقد استفسرنا عن الأمر فلم نجد بين الرهبان من يعلم عنه شيئاً. أما المصلّى الموجود على الشمال فقيل لنا إنه يقوم في المكان الذي ترجّل فيه المجوس عن خيولهم حين جاؤوا يسجدون للمسيح الطفل.

على جانبي المذبح ينتصب سُلَّمان يقودان معاً إلى مكان الميلاد، الذي يوجد تحت المذبح تماماً. والنازل منهما ينزل ست درجات فيجد نفسه أمام باب من البرونز فيه فتحة من الأعلى، هو الباب الذي يغلق مكانَ ميلادِ مخلِّصِ العالم.

مكان ميلاد السيد المسيح

على يسار النازل من السلم اليمين يقوم مصلى في المكان الذي شهد ميلاد السيد المسيح.. وهو مكسو بالمرمر الأبيض، وفي وسطه دائرة من الفضة على شكل شمس، مكتوب عليها: «هنا وُلد المسيح من السيدة العذراء». ويزعم «تيفنو» أن هناك حول الدائرة على صفحة المرمر الذي يكسو المكان

صورةً لوجه عذراء وأمامها طفل نائم. وقد دقّقنا النظر في المرمر وكذلك فعل الرهبان الذين كانوا برفقتنا، فلم نعثر للصورة المزعومة على أثر.

مكان مذود المسيح

نزلنا ثلاث درجات من المصلى نفسه لنجد أنفسنا في المصلى المقام قريباً من المكان الذي كان فيه المذود قبل أن يُنقل إلى حيث هو اليوم في كنيسة السيدة العذراء الكبرى في روما.

مصلّى التعبد

أمام الداخل يقع مصلّى التعبّد الذي سجد فيه المجوس للمسيح الصبيّ، وإلى جواره حجر منصوب في المكان الذي يقال إنّ السيدة العذراء كانت واقفة فيه حين أقبلوا عليها ساجدين، وحجر آخر في المكان الذي وضعوا فيه هداياهم، وهو على شكل مصطبة صغيرة على شمال مدخل المصلّى. والإسطبل ليس مبنياً بل هو منحوت في الصخر، وقد دعموه بأعمدة من حجر السماق، مما جعله يبقى على حاله.

قبور القديسين أوزيب وجيروم، والقديسة باولا وابنتها أوستيوكيوم

انتقلنا بعد ذلك إلى زيارة قبر القديس أوزيب الذي يقع في مصلّى به مذبحان، أحدهما على قبر القديس جيروم، وهو على يمين الداخل، والثاني على قبر القديسة باولا وابنتها أوستيوكيوم، وعليه لوحتان من الرخام منحوتتان بيد القديس جيروم، تذكُران مناقب السيدتين وتترحّمان على روحيهما.

مذبحة الفتية الأبرياء

تابعنا طريقنا في الممرّ نفسه، وهو عبارة عن دهليز تحت الأرض، فبلغنا المكان الذي ارتكب فيه الجنود الرومان مجزرة بحقّ الفتية الأبرياء بأمر من الإمبراطور هيرودوت، حيث كانت كثير من الأمهات قد أخفين أبناءهن في هذا المكان، لكن الجنود اكتشفوهم وذبحوهم عن آخرهم. وانتقلنا بعد ذلك إلى مصلّى القديس يوسف، ولا بدّ في هذه الأمكنة جميعاً من حمل الشموع للاهتداء في الظلام المطبق.

صعدنا بعد ذلك درجاً أفضى بنا إلى كنيسة القديسة كاترين، وهي كنيسة رائعة الجمال، كانت فيها

قبل ديراً بنتهُ القديسة باولا.

مدرسة القديس جيروم

اجتزنا الكنيسة الواسعة فأفضينا إلى قاعة فسيحة يقال إنها مدرسة القديس جيروم التي ترجم فيها القديس التوراة من العبرية إلى اللاتينية.

بعد زيارة هذه الأماكن المقدّسة تناولنا طعام الغداء في الدير، وعند الثانية بعد الزوال امتطينا خيولنا وانطلقنا لزيارة ضواحي بيت لحم.

ضواحي بيت لحم

بدأنا بزيارة المكان الذي كان فيه الرعاة حين جاءهم الملاك يحمل إليهم البشارة قائلا: «ها أنا أبشّركم بفرح عظيم يعمّ الشعب كلّه، فقد ولد لكم اليوم من مدينة داوود مخلّصٌ هو المسيح». وهناك مصلى صغير أقامته القديسة هيلانة، يُحيي فيه الرهبان اللاتين القدّاس أربع مرات في السنة.

قرية الرعاة

مررنا من هناك إلى قرية الرعاة، حيث توجد بئر يقال إن السيدة العذراء شربت من مائها وهي هاربة من جنود هيرودوت. ويقولون إنها حين وصلت القرية عطشت فطلبت من القرويين أن يسقوها لكنهم رفضوا، فسارت تعدو إلى هذه البئر التي لم يكن بها دلو ولا حبل، فلما بلغت البئر ارتفع الماء حتى ساوى الأرض، حتى إذا أروت السيدةُ العذراء عطشَها عاد الماء ليغور كما كان.

المغارة التي اختبأ فيها داوود وهو هارب من شاؤول

تابعنا طريقنا فمررنا أمام المغارة التي اختبأ فيها داوود حين اقتطع قطعة من رداء شاؤول.

تل الفرنسيين

على بعد ثلاثة أرباع الفرسخ من هناك ينتصب تلّ وعرٌ يُعرف باسم تل «برتوليا»، كان للفرنسيين على قمته حصن احتفظوا به لأربعين عاماً بعد أن ضاعت منهم مدينة بيت المقدس. والتل معروفٌ هناك إلى اليوم باسم «تل الإفرنج».

حدائق سليمان

بعد أن سرنا نحو فرسخين دخلنا في فجّ عميق قيل لنا إنه حدائق الملك سليمان. وهناك يرى الزائر أطلالاً وخرائب يقولون إنها من بقايا قصر ذلك الملك العظيم، وبجوارها نبع ماء في منتهى الجمال.

مسابح أو مغاسل الملك سليمان

خرجنا من الفجّ الذي يبلغ نحو ربع الفرسخ عرضاً، فوجدنا أمامنا ثلاثة أحواض منحوتة في الصخر لا تزال في حال جيدة، وهي مُرَتَّبَةٌ في تَدَرُّجٍ، بحيث تعلو أولاها الثانية وتعلو هذه الثالثة، والماء يمرّ من إحداها إلى الأخرى. وأصغر تلك الأحواض يمتدّ على طول مئة وخمسين خطوة طولاً في مئة وعشر خطوات عرضاً، وعمقها جميعاً يتراوح بين ثماني قامات وتسع، ويُنزَل إليها بسلالم حجرية. ويقولون إن الملك سليمان قد أقام هذه الأحواض لتغتسل بها جواريه اللواتي كنّ يقمْنَ قرب ذلك المكان.

النبع المختوم Fons Signatus

صعدنا من الفج لنفضي إلى نبع الماء الذي يسقي الأحواض الثلاثة، ويسمونه هناك Fons Signatus، أي «النبع المختوم». وينزل الزائر إلى المكان زحفاً على البطن من خلال كوة في حائط مقوّس كالقبة لا تكفي لمرور شخص سمين بعض السمنة. فإذا وَلَجَ الكوة ترك نفسه ينزلق ليقع في قاعة بيضاوية الشكل مبلّطة بمربّعات صغيرة من المرمر الملوّن على شكل فسيفساء. وعلى يمين الداخل تقع ثلاث عيون من الماء مصطفّة على هيئة مثلث، تبعد إحداها عن الأخرى نحو قدم ونصف القدم، وتخرج من كلّ منها قناة، فيجري الماء في القنوات الثلاث على طول القاعة متفرقاً، ثم يجتمع عند نهايتها في قناة واحدة تسقي الأحواض التي جرى عليها الحديث، فإذا امتلأ أولها فاض منه الماء إلى الثاني، وإذا امتلأ هذا فاض منه إلى الثالث، حتى إذا امتلأ الحوض الأخير اجتمع ما فاض منه في قنوات تسوق الماء إلى بيت المقدس وبيت لحم.

وقرب هذا المكان يقع حصنٌ صغير يستخلص جنودُه من الناس حقوقَ العبور.

سلكنا في العودة طريقاً أخرى فمررنا قرب مصلّ يدعى مصلّ القديس جورج، ولقد وددنا التوقف لزيارته لولا أنّ مرافقنا الراهب حذرنا من خطر الاعتداء بالضرب، فتابعنا طريقنا حيث وصلنا إلى بيت المقدس عند الخامسة عصراً. ولمّا كنا لا نريد إضاعةَ الوقت فقد انطلقنا من ساعتنا

لزيارة الأماكن المقدسة الموجودة في هذه المدينة المباركة.

سجن القديس بطرس

بدأنا بزيارة السجن الذي كان القديس بطرس محبوساً فيه، والذي استطاع الإفلات منه على الرغم من الأبواب المقفلة. وقد رأينا فيه حلقات من حديد مثبتة في الجدران، كانوا يشدون إليها السجناء بالأغلال.

مشفى القديسة هيلانة

انتقلنا بعد ذلك إلى مشفى القديسة هيلانة، وهو واسعٌ فسيح، وفيه سبعةُ مَرَاجلَ عرض كلِّ مرجلٍ منها خمس أقدام، وعمقه قدمان ونصف، يقولون إنها باقية هناك من عهد القديسة.

المكان الذي شفى فيه القديس بطرس الرجل الأعرج

مررنا بعد ذلك قرب باب المعبد المقام في المكان الذي سأل فيه رجل أعرج القديس بطرس الصدقة، فأجابه القديس قائلاً: «انهض واذهب لتتنزّه!»

جاوزنا ذلك المكان فانتقلنا إلى زيارة منزل الرجل الغنيّ الشرير ومنزل العيزر الفقير الطيّب. ثم تبعنا طريق الآلام، وعلى نحو مئتي خطوة من قصر الحاكم بيلاطس وقفنا عند المكان الذي ترنّح عنده السيد المسيح وهو يحمل صليبه ثم سقط، وقد نصبَت فيه القديسة هيلانة عموداً.

قوس بيلاطس

على مقربة من هناك يجد الزائر قوساً يُدعى قوس بيلاطس، وعليه كتابة باللاتينية معناها: «اقبضوا عليه! اقبضوا عليه! وعند ذلك اصلبوه!» وقد انمحت هذه العبارة أو كادت، فلا يميّز القارئُ اليوم حروفَها إلّا بمشقة. ويرى الزائر هناك نافذةً يقولون إن الحاكم بيلاطس كان يطلّ منها حين خاطب الشعب بتلك العبارة الشهيرة.

قصر بيلاطس

على بعد نحو خمسين خطوة من هناك يقع قصر بيلاطس. ويرى زائر روما اليوم الدرج الذي نقله

القديسة هيلانة منه إلى هناك، والمعروف باسم الدرج المُقدَّس Scala Santa. وقد أقامت القديسة في مكانه سلماً حجرياً جديداً ليس به غير إحدى عشرة درجة؛ لأن مستوى الشارع الخارجي كان قد ارتفع عما كان عليه أيام السيد المسيح. وهم يطلقون على المكان اسم الدرج المقدّس لأنّ السيد المسيح رَقَاه وهو داخل على بيلاطس، ثم نزل منه متّجها إلى لقاء هيرودوت.

قاعة المحكمة

انتقلنا بعد ذلك إلى القاعة التي تم فيها تتويج السيد المسيح بالشّوك، وحيث بقي عرضةً لسخرية اليهود وهزئهم، ومنها يرى الزائر هيكل سليمان الذي هو أهم مساجد بيت المقدس.

هيكل سليمان

للهيكل قبة كبيرة مغطاة بالرصاص[1]، وأمامه ساحة فسيحة مبلّطة بالرخام، محاطةٌ بأقواس مرفوعة على أعمدة مزدوجة، وتقوم في زواياها الأربعة أكشاك مسقفة بحجر الأرتواز الأسود. ولم نستطع الاطلاع على المكان أكثر من ذلك؛ لأن الأتراك لا يحبّون أن يدخله ولا أن ينظر إليه مسيحي، لاعتقادهم بأن ذلك يَنجُسُ منه المكان.

مكان ميلاد السيدة العذراء

انتقلنا بعد ذلك إلى مسجدٍ يقوم على أنقاض البيت الذي ولدت فيه السيدة العذراء، وقد كان فيما قبل كنيسةً بيد الأرمن.

قصر هيرودوت

دخلنا بعد ذلك قصر هيرودوت، حيث يوجد جزءٌ من العمود الذي ربطوا إليه السيد المسيح حين جلدوه. وتقوم اليوم في المكان الذي نُفّذ فيه حكم الجلد زريبةٌ للبهائم. وبعد القصر زرنا بيت الفريسي، حيث يرى الزائر حجراً عليه أثر قدم يقولون إنها لمريم المجدلية. وبمتابعة طريق الآلام يجد الزائر بيت السيدة فيرونيكا وبيت النساء القديسات اللواتي قال لهن السيد المسيح: «لا تبكيْنَني بل ابكيْنَ أنفسكنّ وأولادكنّ!» وقرب هذا المكان بناية كبيرة كان يقيم بها فرسان يوحنا قديس بيت

(1) واضح أن الراوي يتحدّث هنا عن قبة الصخرة المباركة التي يحسبها الهيكلَ نفسه، ولا نخال الحصيف يحتاج إلى تعليق... (المترجم).

المقدس.

لمّا لم يبقَ هناك من شيء في المدينة يستحقّ الاهتمام فقد عدنا إلى الدير لنستعد للانطلاق صباح الغد إلى قريتَي «بيت عنانيا» و«بيت فاجي» أو «بيت التين»، في وادي «جوزافات».

في الرابعة من صباح يوم الثاني والعشرين من الشهر خرجنا من بيت المقدس يصحبنا قسٌّ وراهب ورجلان من أهل البلد، أحدهما شيخ؛ أي أمير عربي، لم أرَ في حياتي شحاذاً أسوأ كِسوَةً منه ولا أرذل مظهراً. وقد حملنا معنا بعض الزاد على ألّا نعود إلى الدير إلّا في المساء.

الصخرة التي جرى فوقها رجم القديس إيتيان

عبرنا من بوابة القديس إيتيان أول الشهداء، ومررنا على الصخرة التي أوقفوه فوقها ليرجموه على ضفاف نهر سدرون.

ذهبنا بعد ذلك لزيارة قبر السيدة العذراء، وهي كنيسة مقامة تحت الأرض، فيها مصليات لكلٍّ من اليونان والأرمن والقوطيّين والأحباش واللاتينيين، وفيها للترك أيضاً مسجد، فكانت الصلاة تقام حين وصولنا بأربع كيفيات مختلفة. وينزل الزائر إلى المكان بسُلّم من ثمانٍ وأربعين درجةً منحوتة في الصخر، فيجد على يمينه في منتصف الدرج قبرَي القديسين آنا وجواكيم، وعلى يساره قبر القديس يوسف.

قبر السيدة العذراء

أمّا قبر السيدة العذراء فيقع في وسط الكنيسة، في مصلّى لا يُسمح لغير اللاتينيين بإحياء القدّاس به، وهو بطول اثنتي عشرة قدماً في عرض ستّ أقدام.

المغارة التي سَحَّ فيها جسدُ السيد المسيح عرقاً ودماً

والخارج من هذا المكان يجد عن شماله المغارة التي سحّ فيها جسد السيد المسيح عرقاً ودماً، والتي انعزل فيها المخلِّص للصلاة. وهو أيضاً المكان الذي قدم فيه الملاك الكأس إلى السيد المسيح، فقال السيد المسيح وهو يرفع عينيه إلى السماء: «إن شئتَ يا إلهي أن أشرَبَ هذه الكأسَ فلتكُن مشيئتُك».

الصخرة التي كان الحواريون نائمين عليها

على بعد مرمى حجر من هناك توجد الصخرة التي يقولون إنّ الحواريين بطرس وجاك ويوحنا كانوا مضطجعين عليها حين جاءهم السيد المسيح فخاطبهم قائلاً: «اسهروا وصلّوا، فقد دَنَت ساعتي».

بستان الزيتون

على بعد خمس عشرة خطوة من هناك يوجد بستان الزيتون على يمين الزائر، حيث تقوم سبعُ شجراتِ زيتونٍ يقال إنها من زمن السيد المسيح، وهي شجرات ضخمة لا تزال إلى اليوم تحمل أزهاراً وثماراً. والبستان محاط بسور قصير لا يتجاوز قدماً واحدة ونصف القدم ارتفاعاً، وهو على شكلٍ مربّع لا يتجاوز طول أضلاعه خمساً وثلاثين خطوة تقريباً. وعلى الضلع الغربي منه انبعاجٌ طفيف يقولون إنه يُعيِّن المكان الذي خان فيه يهوذا سيّده وأسلَمَه إلى اليهود. وعلى مقربة من هناك يقع المكانُ الذي قطع فيه القديس بطرس أذن ملخوس الخادم.

قبور الأنبياء

على بعد نحو مئة خطوة من هذا البستان توجد مدافن الأنبياء، وهي تحت الأرض، وفيها ترقد أجداثُ العديدِ من الأنبياء في كوىً منحوتةٍ في الصخر، على غرار ما ذكرتُه في وصفي لمقابر المصريّين القدماء في الإسكندرية.

تابعنا طريقنا لنرتقي جبل الزيتون، فمررنا بالمكان الذي أعطى فيه الحواريون السيدَ المسيح ميثاقَهم، وهو عبارة عن كهف تحت الأرض بعرض ثماني عشرة قدماً وطول ثلاثين، بقبة تقوم على أعمدة.

المكان الذي أدى فيه السيد المسيح الصلاة الربانية

على مرمى بندقية من هناك يوجد المكان الذي أدّى فيه السيد المسيح الصلاة الربانية.

نبوءات نهاية الزمان

على نحو خمسين خطوة من هناك يبلغ الزائر المُصَعِّدُ في الجبل المكانَ الذي تَلَفَّظَ فيه السيد المسيح

بنبوءات نهاية الزمان، وعلى مقربة منه المكان الذي جاءت تتعبد فيه القديسة بيلاجي من أهل أنطاكيا، وقد كانت غانيةً فتابت.

المكان الذي تنبأ فيه الملاك بموت السيدة العذراء

كان لقساوستنا في هذا المكان مصلّى، لكنّ الأتراك استحوذوا عليه ليحوّلوه إلى مسجد. وأمامه يوجد المكان الذي تجلّى فيه الملاك للسيدة العذراء ليخبرها بقرب أجلها، ويوجد في المكان طرف من عمود منصوب هناك.

وصلنا إلى قمة جبل الزيتون، من حيث ارتفع السيد المسيح إلى السماء، فأدّينا الصلاة قرب مسجد قيل لنا إنه كان في الماضي كنيسة تنتسب إلى اللاتينيين، وفيه حجر عليه أثر لقدم يُسرَى يقولون إنّها قدم السيد المسيح، كما يقولون أيضاً إنّ أثراً للقَدَم اليُمنى كان يقوم هناك، لكن أخذه الأتراك فحملوه إلى هيكل سليمان، حيث يولونه كثيراً من التقديس. وقد اضطررنا إلى إعطاء بعض المال إلى التركيّ الذي يحمل مفتاح المسجد كي يسمح لنا بزيارته.

نزلنا بعد ذلك من الجهة الأخرى من الجبل، فمررنا قريبا من قرية «جسماني» Jessemanée القريبة من «بيت التين»، والتي أرسل السيد المسيح اثنين من تلاميذه إليها ليأتوه بالجحش والأتان اللّذين قال لهما إنهما سيجدانهما مربوطين عند مدخلها، ليتخذهما مركباً حين دخوله بيت المقدس في يوم الشعانين.

قصر بيت التين

والقصر كما القرية التي ذكرناها لم يعودا اليوم غير خرائب وأطلال يصعب على المرء أن يرى فيها آثاراً لقريةٍ أو قصر. وعلى بعد فرسخ من هناك تقوم أطلالُ مدينة بيت عنانيا التي لم يكد يبقى منها بناءٌ قائماً.

الصخرة التي جلس عليها السيد المسيح حين أحيا لعازر من الموت

ويرى الزائر هناك الصخرة التي جلس عليها السيد المسيح حين جاء إلى منزل صديقه لعازر، فقالت له أخته مارثا: «يا سيد، لو كنت هنا لما مات أخي!» والصخرة مرتفعة عن الأرض نحو قدمين، وتشبه استراحة منحوتة في الصخر. ويقولون إن الناس اقتطعوا منها أطرافاً على مرّ الزمن ليحملوها

معهم على سبيل التبرّك، فلم ينقص منها ذلك شيئاً. ولست شخصياً لأؤكّدَ صحةَ مثلِ هذا الكلام.

بيت مريم المجدلية

قريباً من هناك ينتصب بيت مريم المجدلية، وقُربَه بئرٌ كان يُستقى منها الماءُ لساكنيه. وغيرَ بعيدٍ منه بيتُ مارثا الذي لا يزال جانب من أحد حيطانه منتصباً بارتفاع نحو سبع أقدام.

بيت لعازر

ينتقل الزائر من هناك إلى بيت لعازر المبنيّ على قمة هضبة، والذي لا تزال حيطانُه قائمةً باديةً للعيان.

ينزل الزائر من عند قبر لعازر سلّماً ذا ستٍّ وعشرين درجةٍ منحوتةٍ في الصخر، فيُفضي إلى مصلّى يُحيي فيه فاوستُنا القدّاس أربع مرّات في السنة، ومنه ينزل الزائر سلّماً من ست درجات ليجد نفسه في مغارة مربعة طول ضلعها سبعُ أقدام. في تلك المغارة كان لعازر يرقد ميتاً منذ أربعة أيام حين جاء السيد المسيح فأحياه. وحجر المذبح في المصلّى الذي تحدثتُ عنه هو الذي كان يرقد عليه جسد الميت في قبره.

منزل سمعون الأبرص

خرجنا من ذلك المكان فمررنا أمام بيت سمعون الأبرص، الذي لا تزال بعض أطلاله قائمة.

الشجرة التي شنق يهوذا نفسه على أغصانها

تابعنا طريقنا في وادي شجرة التين الملعونة، فأفضينا إلى وادي جوزافات، وعلى جانبه الشجرة التي يقولون إن يهوذا شنق نفسه على أغصانها بعد أن خان مخلصَ العالم.

قبر أبشلوم

نزلنا الوادي بعد ذلك، حيث قبر أبشلوم ابن الملك داوود، وهو محاط بعدد من الأعمدة ذات التيجان الكورنثية، ويغطيه هرم. ومن السهل التعرف إلى القبر بسبب الكمية الهائلة من الحجارة التي تحيط به، إذْ لا يكاد أحد يمرّ بجوار القبر من دون أن يرميه بحجر، وذلك بلا شك لمؤاخذتهم الابن

على عصيانه لأبيه. وأمام القبر مباشرة يوجد جسرٌ صغير لعبور نهرَ سدرون، وهو الجسر الذي ألقى اليهود بالسيد المسيح من أعلاه حين كانوا يعنّفونه بعد أن ألقوا عليه القبض في جبل الزيتون. وهناك أسفل الجسر صخرة تحمل أثر جسمه.

بعد ذلك يجد الزائر قبر زكريا، ثم المغارةَ التي اختبأ فيها الحواريّون بعد القبض على السيد المسيح، وهي منحوتة في الصخر، ولها نوافذ تغلقها قضبان حديدية.

بعد ذلك يجد السائر إلى يمينه نبعاً يُدعى نبع السيدة العذراء؛ لأنها غسلت فيه قماط ابنها الحبيب، وينزل إليه الزائر بسلّم ذي خمس عشرة درجة، وماؤه طيب.

البئر التي أُخفِيَت فيها النارُ المقدسة

ذهبنا بعد ذلك لرؤية البئر التي أخفى فيها اليهود النار المقدّسة حين كان نبوخذ نصر[1] يقودهم إلى بابل أسرى. وقد دام هذا الأسر سبعين عاماً، وحين عادوا إلى بلادهم بعد التحرّر أرسل النبي «نحميا» من يستخرج النار من مخبئها، فلما وصلوا لم يجدوا هناك غير بعض الطمي، فاحتملوه وجاؤوا به فوضعوه على مذبح القرابين فاشتعل ناراً واحترق.

الشجرتان اللتان صلب بينهما النبي اليشع IsaIe

على طريق العودة نحو المدينة مررنا بالموضع الذي صُلب فيه النبي اليشع ونُشر جسمه بأمر من الملك «مانامي» بالمنشار نصفين وهو حيّ. وقد أرونا شجرتي الزيتون اللتين يقولون إن النبي رُبط بينهما، واللتين ظهر بحذائهما فجأة أربعة من العرب بدا عليهم أنهم راغبون في الاعتداء علينا. وقد أبانوا عن نيّتهم بوضوح حين قالوا لنا إنّنا محظوظون لكوننا برفقة شخص ذي شأن، وإلاّ فلَمّا كان يمكننا المرور من هناك بسهولة. أما الشخص ذو الشأن الذي عَنَوه بكلامهم فلم يكن إلاّ الشيخ العربي الذي كان يخفرنا. وقد سارعنا بمغادرة المكان خشية أن ينقلبوا فجأةً علينا وعلى دليلنا.

بِركة سلوام

على بعد مئة خطوة من هناك توجد البركة المعروفة باسم بركة سلوام التي أمر السيدُ المسيح الرجلَ الذي وُلِدَ أعمى أن يغتسل فيها ففعل فعاد إليه بصره.

---

(١) هو ملك بابل المعروف عند المؤرخين العرب باسم بختنصر (المترجم).

حقل الفخار

يوجد حقل الفخار على يسار الطريق قرب أسوار المدينة، إنه الحقلُ الذي اشتُري بالقطع الفضية الثلاثين التي باع بها يهوذا الإسخريوطي سيده. وهو محاط بسور، وقد بني عليه ملجأ للفقراء من أبناء السبيل. وبين هذا الحقل والمدينة يوجد المكان الذي بكي فيه القديس بطرس فِعلَتَهُ حين أنكر معرفته بالسيد المسيح.

كانت الساعة حينها تشير إلى الثانية بعد الظهر، فتوقفنا قرب أسوار المدينة على جانب وادي جوزافات لتناول طعام الغداء.

بعد ذلك تابعنا طريقنا بحاذاة سور المدينة، فمررنا من أمام الباب الذي دخل منه السيد المسيح إلى بيت المقدس في يوم الشعانين. وبعد أن قطعنا وادي جوزافات اخترقنا بعض الحقول في طريقنا إلى مقابر ملوك إسرائيل الأوائل، وهي على بعد نحو ربع فرسخ من المدينة.

قبور ملوك إسرائيل

كان المكان في ما مضى على شكل حصن محاط بأسوار عالية، باحته الداخلية مثمّنة الأضلاع، يرى الداخل إليها عن شماله بناءً كالمخزن يبدو أنه كان في الماضي في مكانه سلّم، له قبة تحتها كوّة يدخل منها الزائر، ثم ينزلق ملاصقاً الحائط، ليجد نفسه في قاعة فسيحة تنفتح عليها أبواب أربع غرف. الأبواب منحوتة من الحجر، وهي مغلقة لا يفتحونها إلاّ من أجل جعلها تدور حول محاورها الحجرية مخافة أن تَتَكَلَّسَ فتصبحَ عَصِيَّةً على الدوران. ويمكن القول بلا مراء إن مَن صَنَعَ تلك الأبواب ومحاورها كان على جانبٍ عظيم من المهارة. في كل واحدة من الغرف ثمانية مدافن منحوتة في الصخر كسابقاتها التي ذَكَرتها. والغرفة التي على يمين الداخل تُمَثِّل مدخلاً إلى الغرف الأربع الأخرى. بعد ذلك ينزل الزائر سلماً من ست درجات ليجد نفسه في غرفة صغيرة من نحو عشر أقدام طولاً في عرض ثمان، فيها قبر من الحجر على شكل تابوتٍ كسَرَ الأتراكُ غطاءه وجوانبه.

مررنا في طريق عودتنا إلى المدينة بالقرب من مغارة النبي إرميا، حيث يغلقها بابٌ يبدو منحوتاً في الصخر أيضاً، ولا تبعد المغارة عن المدينة إلاّ نحو مئتي خطوة.

بذلك انهينا زيارة الأماكن المقدسة في المدينة، فتهيأنا للرحيل.

أما نهر الأردن فإننا لم نستطع زيارته لأنّ العرب كانوا في حربٍ في منطقة تقع بيننا وبينه.

وصف دير السيد المخلّص

هو دير في غاية الجمال، يجد فيه الحجّاج حسن الاستقبال والرعاية والاهتمام. وكنيسة الدير جميلة جيدة التزيين مبلطة بالرّخام. وهناك ثلاثة مذابح، أوسطها مُقامٌ على اسم السيد المسيح، والأيمن على اسم العشاء الأخير، والأيسر على اسم تجلّي السيد المسيح للقديس توما.

حان الرحيل، فاجتمع رهبان الدير، وجاء كبير القساوسة مرتدياً ثياب الكهنوت، فألقى علينا موعظة مؤثّرة، ثم باركنا وقبّلنا مودّعاً.

فلما خرجنا من الكنيسة جاءتنا رسائل توصية ملكية.

الانطلاق من بيت المقدس

بعد أن ودّعنا الرهبان غادرنا الدير في اليوم نفسه؛ الثاني من غشت / آب، عند الساعة السادسة مساء، يرافقنا دليلُنا وقائدُ القافلة التي جئنا معها وأربعةٌ من العرب.

سرنا متّبعين طريقاً غير التي جئنا منها، حتى إذا انتصف الليل توقّفنا في وادٍ عند شجيرة على بعد عشر خطوات أو اثنتي عشر خطوة من الطريق، فأخذنا هناك قسطاً من الراحة، ثم تابعنا طريقنا، فوصلنا نابلس عند التاسعة صباحاً، حيث نزلنا عند حاكمها الذي هو - كما أسلفت - أخُ الآغا.

الغداء عند حاكم نابلس

حان وقت الغداء، فجاء الخدم ووضعوا السماط في غرفتنا، بمستوى النظافة نفسه وعدد الأطباق ذاته الذي رأيناه من قبل عند الآغا، وقد دُعِينا إلى هذه المائدة، فكان حالنا مثل ما كان عليه يوم دُعينا إلى مائدة هذا الأخير. وانفرط عقد الآكلين فراح كلٌّ يغسل يديه، ثم جيء بالقهوة والتبغ، فأبليت فيهما بلاء حسناً، ولا سيما أنني كنت مدخّناً كبيراً أيام الجنديّة. وقد انبسط الأتراكُ لرؤيتي أفعل كما يفعلون، فراحوا يردّدون قائلين إنه من المؤسف أن يولد رجلٌ مثلي كافراً، وإنه لو شاء الله أن يكرمني بالولادة في بلاد المسلمين لكنت رجلاً صالحاً...

الانطلاق من نابلس

عند السابعة مساء أعطانا الآغا أحدَ جنود الإنكشارية ليخفرنا حتى يُبلغنا الناصرة، فسرنا

طيلة الليل في هضاب ووديان، حتى إذا كانت الثانية صباحاً مررنا بقرية كان بعض أهلها لا يزالون مستيقظين، فاعترضوا طريقنا سائلين عمَّن نكون، فأجابهم دليلنا بلسانهم فتركونا نمضي. فلما جاوزنا القرية أسرَّ إلينا الدليل أنَّ من الأفضل أن نسرع بالابتعاد عن المكان؛ لأن الذين اعترضونا قد يلحقون بنا للتحقق من هويتنا. وتبعاً لذلك غيّرنا طريقنا، وسرنا نَخُبُّ بالخيل خَبّاً حتى نبتعد بأسرع ما أمكن عن ذلك المكان المكروه، وكان علينا في أثناء ذلك التزامُ الصمتِ كلما مررنا بقرية أو قاطَعَ طريقَنا إنسان.

وصلنا إلى الناصرة يوم الثالث والعشرين من الشهر عند الثامنة صباحاً، فتخلصنا من أزيائنا التنكرية العربية لنسترجع ملابسنا، وعند الثانية انطلقنا من الناصرة نحو عكا، حيث وصلنا عند السابعة مساءً فنزلنا عند القنصل.

في اليوم التالي؛ الرابع والعشرين من الشهر، علمنا أن القافلة الملكية قد غادرت صيدا نحو قبرص، فأراد السيد كوندامين أن يجهز مركباً للحاق بها، غير أن الفرنسيين المستقرين في هذا المكان أخبروه أن الرياح معاكسة، وأنه من الخير له أن يمضي براً إلى صيدا، حيث سيجد هناك ما يشاء من سفن تنقله إلى قبرص، ولا سيما أن هناك في هذا الفصل رياحاً تهبّ في المساء من الأرض فتدفع بالسفن إلى ما يفوق العشرين فرسخاً في عرض البحر، مما لن يستدعي منا أكثر من أربع وعشرين ساعة لبلوغ قبرص.

وقد نزل السيد كوندامين عند هذه النصيحة على مَضَضٍ، وكأنّي به كان يَستَشعِر ما كان ينتظرنا...

قبل مغادرة عكا ذهبنا لزيارة الحصن الذي كان ذات يوم لفرسان مالطة في هذه البلاد، ويقولون إنه كان يتوسّط مدينة فلسطينية عامرة، لم يبقَ منها اليوم سوى قرية صغيرة ليس بها إلاّ القليل من الناس.

الانطلاق من عكا

بعد حضور القداس غادرنا عكا، يصحبنا السيد «غاي» Gailles، وهو تاجر فرنسي مستقر بصيدا، وشيَّعَنا كثيرٌ من الفرنسيين حتى أصبحنا على فرسخ من المدينة.

تبعد صيدا عن عكا نحو ثمانية عشر فرسخاً، لذلك أخذنا معنا بعض الزاد للطريق. وبعد أن سرنا حوالي أربع ساعات تَوَقَّفنَا إلى جوار نبعِ ماءٍ حيث تناولنا غداءنا، ثم تابعنا سيرنا عبر هضاب وجبال شديدة الانحدار تطلّ على البحر. وبعد فراسخَ من طُرُقٍ وعرة أتعبتنا بالغ التعب، وصلنا بإزاء حصنٍ

جعلَنا القائمون عليه نؤدي نصف قرش للفرد ثمناً للعبور.

بئرا سليمان

على بعد نحو ثلاثة فراسخ من هناك وجدنا حوضين كبيرين يدعيان بئري سليمان، ويقال إنه هو من قام بحفرهما. ومحيط أصغر الحوضين يبلغ نحو خمس وعشرين قدماً، وهو يغذي طاحونة، أما الآخر فأكبر منه بكثير، وتخرج المياه منه من خلال قناتين تصبّان في حوض حجريّ على شكل قُمع ينفَلِتُ الماءُ من أسفله بسرعة عالية فيدير طاحونتين أخريين. والبئران عميقتان بعيدتا الغور، وهما محفورتان في سهلٍ على شاطئ البحر، ترتفع فوهتاهما عن الأرض نحو اثنتي عشرة قدماً، وماؤهما طيب.

بعد ذلك واصلنا طريقنا لنصل إلى مدينة صور في الثامنة مساء.

مدينة صور

هذه المدينة التي كانت ذات يوم زاهرةً لم تعد اليوم تستحقّ حتى اسم القرية؛ فأسوارها مهدّمة وميناؤها أغلقته الرمال، فلم تعد فيها سوى بضعة بيوت خَرِبة يقطنها بعض اليونانيين والعرب.

قبل بلوغ هذه العاصمة العتيقة مررنا بالطريق التي فتحها الإسكندر الأكبر حين أتى ليحتل المدينة ويستعبد أهلها، وهي طريق تتسع لأربعة فرسان يسيرون صفاً.

نزلنا عند رجل يوناني لم يكن عنده مكان للمبيت إلاّ الإسطبل، فبتنا فيه، وباتت الخيول في الساحة، ولم يكن عنده شيء يقدّمه لنا للعشاء، فاكتفينا بما كان معنا من بقايا غدائنا، وحَسَناً فَعَلنا باستبقائها لأننا كنا جميعا جائعين.

في اليوم التالي؛ الخامس والعشرين من الشهر، وهو يوم عيد القديس لويس، غادرنا صور، فوصلنا صيدا عند الحادية عشرة صباحاً، حيث حضرنا القداس، ثم تناولنا طعام الغداء عند السيد «غاي».

مقابر ملوك صيدا القدماء

بعد الغداء ذهبنا لزيارة قبور ملوك صيدا، حيث يرى الزائر شجرةً متحجّرة جذعُها أقسى من الجلمود، أما القبور فمنحوتة في الصخر كسابقاتها مما ذكرت.

وصف مدينة صيدا

صيدا مدينة سورية كانت في الماضي تدعى صيدون، تقع على شاطئ البحر إلى الشمال من مدينة صور. وكان يقوم على مدخل مينائها في أيام المسيحيين حصنان دفاعيان، أما اليوم فلم يبقَ قائماً هناك سوى أجزاء من أحد الحصنين لا تستطيع أن تدفع عن المدينة غيلةَ غائلٍ. ولا يزال في حارة الإفرنج بعض الرهبان من أَخَوِيَّة القديس فرنسوا وبعض التجار الذين يعقدون صفقات هامة في مادتَي الحرير والقطن.

والمدينة محاطة ببساتين مزروعة بأشجار مثمرة من مختلف الأصناف، ولا سيما منها شجر التوت الذي يستعملون أوراقه في إطعام دود القز. كما توجد هناك أشجار تين طول الورقة منها قدمان في عرض قدم، يقولون إن آدم عليه السلام استعمل واحدة منها ليستر عورته حين ارتكب خطيئته، ويطلقون عليها هناك اسمه.

عند الرابعة عصراً جهّز السيد كوندامين سفينة لتقلّنا إلى قبرص. صعدنا على متنها في الخامسة، وكنّا على وشك الإقلاع حين جاء مبعوث من الآغا يطلب من السادة الفرنسيين أن ينقلوا إلى السيد كوندامين طلبه بأن يحمل معه أحد الأغوات الذي كان يرغب في الالتحاق بالجزيرة، ومعه ترجمان وبعض المرافقين قيل إنهم لن يكونوا أكثر من ثلاثة أنفار أو أربعة، فإذا بهم أكثر من عشرين رجلاً، مما لم يكد يترك لنا مكاناً على ظهر المركب. وقد كان في الإمكان أن نُقلع على الرغم من ذلك لو لا أن السيد كوندامين أصيب فجأة بالحمّى، فنزلتُ إلى اليابسة وطلبتُ من السادة الفرنسيين أن يرسلوا مَن يُنزله من على ظهر المركب؛ لأنه لا يستطيع احتمال ركوب البحر من فرط اشتداد الحمى عليه. وسرعان ما جاء أحد التجار فأنزلنا المريض إلى اليابسة.

في اليوم التالي جاء قبطان المركب يخبرنا بأن الريح طيبة، فلم نضع وقتاً وركبنا عند الثانية عشرة، حيث دفعتنا ريح أرضية نحواً من ستة فراسخ في عرض البحر.

لكنّ الريح لم تلبث أن دارت ونحن على بعد سبعة فراسخ من صيدا، فأصبحت معاكسة. ولما كانت هذه المراكب، أو بالأصح لّما كان ربابنتها غير معتادين على الإبحار تحت رياح معاكسة، ولا يملكون خرائط ولا بوصلةً للاهتداء، فسرعان ما بدا الارتباك على ربان سفينتنا الذي سارع بالقول إن علينا أن نقفل راجعين إلى صيدا؛ لأن الريح لن تحملنا إلى قبرص، مضيفاً أن وجودَ أتراكٍ معنا يجعله يخشى بسبب ذلك هجماتِ القراصنة. ولم تنفع معه الحجج ولا المعاذير التي أدلينا إليه بها،

إذ بقي مُصِرّاً على الرجوع إلى صيدا. بيد أنه أضاف يقول إنه مستعدّ لمواصلة الطريق إذا ما ضمن السيد كوندامين حياة الأتراك الذين برفقتنا، إلاّ أنّ هذا الأخير فضّل العودة إلى صيدا على أن يتعهّد بحياة أناس لا يرى أنهم يستحقون ذلك، ولم نجد من رفقتهم إلاّ الضيق والحرج. وهكذا رجعنا على أعقابنا، فنزلنا البَرَّ بعد ذلك بست ساعات.

بعد نزولنا البر بقليل علمنا أن هناك تاجراً يونانياً سيُبحر حاملاً شحنةً من القمح إلى بيروت، فأرسلوا في استدعائه، واتفقنا معه على أن يُقِلَّنا إليها، وهكذا ركبنا معه في العاشرة ليلاً، وأقلعنا من ليلتنا.

بلغنا بيروت في الثامنة من صباح اليوم التالي؛ السابع والعشرين من الشهر، غير أن صاحبنا اليونانيّ لم يستطع الإقلاع بعد أن أنزل شحنته؛ لأن الريح كانت معاكسة، فتعيَّن علينا انتظار الريح الأرضية التي تهبّ عند منتصف الليل في تلك البقاع. وهبت الريح فعلاً ضعيفة، لكن طيبة، فأقلعنا.

فلما كانت الثامنة من صباح الغد، ونحن لا نبعد عن اليابسة أكثر من خمسة أميال، سكنت الريح، فبقينا في مكاننا النهار كلّه، ثم جاء الليل فلم يحمل معه من الريح إلاّ القليل. وغابت الأرض عن أعيننا، فإذا ببحارتنا - وهم في مثل معرفة القبطان الذي ذكرته آنفاً وفي مثل افتقاره إلى مُعِدَّات الإبحار - لم يعودوا يدرون إلى أي اتجاه يسيرون، وما كانوا ليَتخلَّصوا من وَرطَتِهم تلك لولا أن السيد كوندامين كان قد احتاط بنقل جزء من الخريطة التي نحتاجها للوصول إلى قبرص. وكانت لديه كذلك بوصلة أفادتنا كبير الفائدة، ولما رآها البحارة اليونان في يده أسلَموا إليه مقاليد السفينة، وصاروا يستشيرونه في الطريق التي ينبغي لهم أن يتَّبِعوها. وجاء اليوم التالي؛ التاسع والعشرون من الشهر، فبقيت الريح ساكنة وبقينا ثانيةً في مكاننا دون حركة.

يوم الثلاثين هبت ريح ضعيفة في الصباح، وازدادت قوة عند منتصف النهار. وعند السادسة مساء لاحت لنا الأرض، فما إن أبصرها بحارتنا حتى استحالوا جميعهم ربابنة...

ثم همدت الريح عند الثامنة، فبقينا مكاننا حتى صباح الغد.

يوم الحادي والثلاثين طابت الريح كما الأمس حوالي منتصف النهار، فمددنا القلوع كي نُفيد منها لنبلغ مقصدنا بأسرع ما يمكن.

عند الرابعة صباحاً ضاعفت الريح من سرعتها، فانتفض لها البحر حتى صار الموج يعلو مركَبنا بين الفينة والأخرى فَيَبَلِّلُنا ومتاعَنا جميعاً. غير أننا استطعنا على الرغم من الريح والموج أن نواصل إبحارنا

حتى صرنا على خمسة فراسخ ونصف الفرسخ من ميناء لارنكا، حيث اضطررنا لإلقاء مراسينا؛ لأن البحر كان يزداد هياجاً كلما ازددنا اقترابا من اليابسة. لكن على الرغم من هذا الاحتياط الذي اتخذناه فلو زادت الريح من شدتها قليلاً لما كنا في مأمَنٍ حتى ونحن راسون في مكاننا ذاك.

حين مالت الشمس للمغيب غيّرت الريح اتجاهها، فرفعنا مراسينا، وأقلعنا لندخل لارنكة في قبرص تحت ريحٍ آتية من خلفنا.

نزلنا اليابسة، فذهبوا بنا عند القنصل الفرنسي السيد «مونغران» Mongrand، حيث علمنا أن قافلة السفن الملكية قد أقلعت منذ ثلاثة أيام. فلو أن السيد كوندامين لم يتبع نصيحة التجار في عكا لكُنَّا قد أدركنا القافلة في الميناء، أو استطعنا على الأقل اللّحاق بها في عرض البحر.

في اليوم التالي لوصولنا قيل لنا إن هناك مركباً فرنسياً تحت الإصلاح في ميناء «فاماغوست» سيبحر قريباً نحو أزمير، فأرسلنا على وجه الاستعجال مَن يستعلم لنا عن وقت إبحار المركب ويطلب من قائده القبطان «لو روا» le Roy أن يمرّ في طريقه عبر لارنكة ليحملنا معه. وعاد الرسول برسالة من القائد يقول فيها إنه على وشك الإقلاع، لكنه لن يستطيع أن يلقي مراسيه إلاّ في ليماسول، وهي قرية صغيرة على بُعد خمسة عشر فرسخا بَرّاً من لارنكة.

في اليوم نفسه ذهبنا لزيارة قبر يقولون إنه القبر الذي دُفن فيه لعازر بعد أن مات للمرة الثانية. ويوجد القبر في كنيسة يونانية تقع قريباً من الميناء، حيث يراه الزائر خلف مذبح الكنيسة في مكان ذي مدخل ضيق لا يَلِجُ المرءُ منه إلاّ بصعوبة، ويبدو أن سلّماً كان في الماضي ينتصب هناك من ثلاث درجات يُفضي إليه. وهو على وجه التقريب في حجم الضريح الذي رأيته في قرية بيت التين.

حيوان غريب

عثرنا على حيوان غريب في حجم النواة، له شكل العنكبوت، لكن بأرجل مختلفة، يقال إنه أخطرُ سُمّاً من الأفعى، ويوجد بأعداد كبيرة في تلك الجزيرة. وقد قتلنا ذلك الحيوان بلا تردّد، ولم يستطع ترجماننا أن يخبرنا باسمه الفرنسي.

الانطلاق من لارنكة

عند الخامسة عصراً من اليوم نفسه غادرنا لارنكة بصحبة الترجمان ورجلٍ مكلف بالعناية بالخيل.

على بعد فرسخين من لارنكا هناك ملأّحات في غاية الجمال، لم تعد تصل إليها مياه البحر منذ أكثر من مئة عام، لكنها تنتج من مياه الأمطار ملحاً لا يقل جودة عن ذاك الذي كانت تنتجه حين كانت تَبلُغُها مياه البحر المالح.

على بعد فرسخ من هناك يوجد قبر والدة محمد نبي المسلمين[1]، وهو في داخل مسجد مقام هناك، تحت قبةٍ محفوظة مصونة، سَمح لنا الحرسُ بعد لأيٍ بالنظر من خلال شبابيكها الحديدية؛ لأن الأتراك يرون أنه لا يجوز لكافرٍ نجسٍ أن ينظر إلى الأشياء المقدسة.

تابعنا طريقنا حتى العاشرة ليلاً فتوقفنا في قرية لدى دليلنا معارفُ فيها، حيث تناولنا طعام العشاء في أحد المنازل، ونمنا في باحته حتى الثانية صباحاً فقمنا وركبنا وسرنا حتى الثانية صباحاً، حيث توقّفنا عند نبع ماءٍ لنروي خيولنا. في تلك الأثناء جاء رجل يخبرنا أن القبطان «لو روا» لم يصل بعد إلى ليماسول، مما جعلنا نبقى في مكاننا متيحين للخيل أن تستريح.

بلغنا ليماسول في الرابع من سبتمبر / أيلول عند الخامسة عصراً، فنزلنا عند رجل يوناني يدعى ديمتري، يتاجر مع الفرنسيين في هذا الميناء. فلما كان الصباح ركبنا لزيارة أطلال حصن ليماسول القديمة.

حصن ليماسول القديمة

يجد الزائر هناك حوضاً منحوتاً في الحجر عمقه اثنتا عشرة قدما وقطره عشرون، ويقع الحصن أعلى قمةِ جبلٍ وعر، على بعد نحو فرسخين من المدينة الحديثة. فلما صعدنا الجبل أبصرنا أمامنا واديا ينتصب في وسطه عمود على نحو نصف فرسخ منا، حتى إذا نزلنا لنرى العمود صادفنا فوجاً من أفراخ الحجل، فقتلنا منها أنا والترجمان طيراً لكل منا، ثم بلغنا العمود فإذا هو بطول ثلاث عشرة قدماً دون احتساب قاعدته التي تبلغ ثلاث أقدام. ولم نجد عليه أية كتابة تدلّنا على السبب الذي من أجله أقامه مَن أقامه هنالك.

في السادس من الشهر خرجت للقنص، فسرت أكثر من فرسخين من دون أن أصادف الطائر المعروف باسم «الدُّراج» الموجود بكثرة في الجزيرة، فاكتفيت بست طرائد من أنواع أخرى. ولما كان الوقت مساءً فقد اضطُررت إلى أن أعود أدراجي إلى المدينة متجرعاً في أسىً خيبتي وفشلي في الظفر

---

(1) غريبٌ أمر هذا الخلط من الراوي، وقد بحثنا في ما توفر تحت أيدينا من مراجع فلم نقف لأثرٍ على ما قد يساعد في فهمه (المترجم).

بتلك الطريدة التي طالما سمعت عنها فلم يُكتب لي حتى أن أراها. وفيما أنا أجترُّ أفكاري هذه لمحت وأنا أخترق أجَمَةً من الأعشاب العالية أحدَ هذه الطيور، فبادرت منتهزاً الفرصة وأطلقت عليه النار فأصبت أحد جناحيه، ورأيته يسقط، فجريت لأمسك به لعِلمي بأنه يعدو عَدوَ الحجل، فلما أمسكته قفلت راجعاً وأنا أحسن حالاً بقليل.

طائر الدراج

هذا الطائر هجين، فيه من التَّدرُّج ومن الحجل، وهو أكبر قليلاً من الحجل الأحمر.

في اليوم التالي؛ السابع من الشهر كنت أستعد للانطلاق في رحلة قنص جديدة تقودني إلى الجبل؛ لأن فيه طرائد أكثر مما في السهل، غير أن رسولاً جاء من عند السيد «مونغران» يخبرنا بأنّ المركب الذي سيقلّنا قد ألقى مرساته في لارنكة وأنه في انتظارنا هناك، فاضطررت إلى إلغاء رحلة القنص والاستعداد للرحيل.

حصن ليماسول وحاميته

يوجد في ليماسول حصنٌ محاذٍ لشاطئ البحر، مهمته حماية السفن التركية واليونانية التي ترسو هناك. وعلى الحصن حراس أتراك يؤمّنون الحراسة في الليل فيصرخون بين الفينة والفينة قائلين: «ساكينا آ لارغا»، وهو ما معناه تقريباً: «خذوا حذركم وابقوا بعيداً في عرض البحر، فنحن متيقظون!» كما أنهم يُوقدون في الليل نارين إحداهما على رأس «آغاث» Agathe والثانية على الجبل الذي كانت تقوم عليه ليماسول القديمة، حتى يرى كلّ قرصان أن هناك حرساً على الشاطئ مستعدين في كل وقت للدفاع عن الميناء. وأنا أرى شخصياً أن مثل هذه الإشارات تَنمُّ عن الخوف أكثر مما توحي بالقوة والشجاعة. وعلى الرغم من كل تلك الاحتياطات فقد نجح قرصانان من جزيرة مالطة قبل قدومنا بستة أشهر في اختطاف ثلاث سفن محمَّلة بالقمح وغيرها من السلع، اقتاداها إلى جزيرتهما. وهذه قصة الحادثة كما وقعت:

ألقى القرصانان مرساتيهما عند رأس «آغاث» حيث لا يُريان من المدينة، ثم ألقيا بالقوارب إلى الماء وعلى متن كل منها خمسة وعشرون إلى ثلاثين رجلاً، انطلقوا إلى عرض المرسى وبقوا هناك، حتى إذا جَنَّ الليلُ اقتربوا من الشاطئ رويداً حتى أصبحوا تحت أسوار الحصن الذي كانت السفن راسية بجواره، فاعتلوا السفن وقطعوا مراسيها ورفعوا القلوع من دون أن يتنبه إليهم أحد. فلما أقلعت

السفن أثار ذلك انتباه الحارس الليلي في برج الحصن، فشرع في الصراخ، فسمعه حراس الحصن فأطلقوا طلقة مدفع أيقظت أعضاء طاقم السفن الذين وجدوا أنفسهم تحت تهديد السلاح، فلم يملكوا إلاّ الاستسلام. وقد واصل الحصن إطلاق النار، ويقولون إنه قد أُطلقت أكثر من مئة طلقة مدفعية من دون أن تصاب أي من السفن بسوء، بحيث فاز القراصنة بالسفن من دون أن يصاب منهم رجل واحد.

في الرابعة من عصر اليوم التالي؛ السابع من الشهر، انطلقنا من ليماسول، فسرنا حتى تَوَقَّفنا لتناول العشاء في وسط غابة على بعد فرسخين من الشاطئ؛ قيل لنا إن القراصنة كانوا كثيراً ما يحِلّون بها لممارسة النهب والخطف. ولما كنا ثمانية رجال بين راكب وراجل فإنّ أهل القرية حين رأونا سارعوا بالفرار ظنّاً منهم أننا من القراصنة وأننا قادمون لنهب أموالهم وسَبي من نستطيع سبيه منهم. وقد أوصانا الترجمان بألاّ ننبس بكلمة متى دخلنا تلك القرية التي كان له فيها معارف، مخافة أن نتلقّى طلقة من بندقية، ثم تَقَدَّمَنا وهو ينادي بأسماء الأشخاص الذين يعرفهم، والذين لم يبقَ منهم هناك إلا بعضُ النساء ورجلٌ صعد فوق سطح منزله وهو مسلح ببندقية ومسدسين. لكنهم حين سمعوا صوت الترجمان عرفوه فاطمأنوا، وفتحوا لنا فأدخلونا إلى باحة المنزل، وأوقدوا ناراً تناولنا عشاءنا على ضوئها، ثم أخذنا قسطاً من الراحة، حتى إذا كانت الثانية صباحاً ركبنا وتابعنا الطريق، فبلغنا لارنكة عند العاشرة.

يوم التاسع من الشهر بتنا على ظهر هذه السفينة الفرنسية المسماة «لا غالير دي مارساي» la Galère de Marseille، وقبالتها ترسو سفينة «لا شبريوت» la Chypriote التي ضربها الطاعون قبل ستة أسابيع، فلم يَبق من طاقمها إلاّ القبطان وثلاثة بحارة، وهي - أي السفينة التي امتطيناها - تُعَدُّ بلا منازعٍ أقدَمَ مركب يجوب أرجاء البحر الأبيض المتوسط.

انطلقنا يوم العاشر من سبتمبر / أيلول تحت ريح معاكسة، فأبحرنا في خطٍّ متعرج طيلة خمسة أيام كاملة من دون أن نستطيع تجاوُزَ الجزيرة. وكان معنا على ظهر السفينة خمسون مسافراً تركياً لم يكونوا قد حملوا معهم كثيراً من الزاد، وخشوا أن يعانوا إن نحن مررنا في عَرضٍ «كارامانيا» من دون أن تكون معهم فواكه يطفئون بها عطشهم، فأرغموا قائد السفينة على أن يرسو بنا في «بافا» التي تقع قبالة «بافوس» في قبرص. وأحسب أن القائد كان في قرارة نفسه مُرَحِّباً بهذا التوقف، ولا سيما أن سفينته كان بها ثقبٌ يُرغم البحارةَ على شَفطِ الماء ثلاثَ مراتٍ في كل يوم. وقد ألقينا المرساة هناك يوم الخامس عشر من الشهر عند الرابعة عصراً.

التوقف عند بافا

أنزلنا متاعنا إلى اليابسة على نية الانتقال إلى جزيرة رودس إذا لاحت فرصةٌ لذلك. وقد كانت لنا أسباب متعدِّدَةٌ لاتخاذ هذا القرار، أولها كميات الماء الكبيرة التي كانت تدخل إلى السفينة فتبطِّئ من سرعتها، وثانيها أن القائد كان يعلم حَقَّ العِلمِ أن سفينته غير قادرة على احتمال الضَّربِ في البحر بسرعة كبيرة، فكان يمضي بها الهُوَيْنَى مترفّقاً مما يجعلنا نفقد كلّ أمل في اللحاق بالقافلة الملكية حيث متاعنا كلُّه الذي لم نكن نحمل معنا منه إلاّ ثمانية قمصان للنَّفَر واللباس الذي كان على ظهرنا.

انطلقنا من ساعتنا نحو القرية الصغيرة القائمة على شاطئ البحر فوق أطلال بافوس القديمة، حيث التقينا رجلاً يونانياً رحَّبَ بنا للنزول في داره طيلة مقامنا على الجزيرة، فقبِلَ السيدُ كوندامين الدعوةَ، وسرنا خلف الرجل إلى بيته في القرية الحديثة على بعد نحو فرسخ من الميناء. والمدينة مبنيّة على هضبة شرقي موقع بافوس، وليس بها أثر لأي حركة تجارية. وقد قمنا في اليوم التالي بجولة استطلاعية فيها فلم نظفر برؤية ما يمكن أن يستثير انتباه المسافر.

مغامرة تسبّبت فيها امرأة يونانية

بعد العشاء صعد السيد كوندامين إلى سطح مرتفع في باحة منزل مضيفنا ليرى إن كانت الريح طيبة بما كان يتيح لها حملنا لو أننا بقينا مبحرين. وكان هذا السطح متصلاً بسطح لجار كان في تلك الساعة نائماً هناك مع زوجته، لا شك في أنه حين لمح السيد كوندامين أوحى إلى امرأته بأن تصرخ قائلة إنّ الإفرنجي الذي ينزل عند «غايوت» Gaillote (وكان هذا اسم مضيفنا) قد اقتحم عليها سطح دارها وأراد بها سوءاً. وإني لأتساءل كيف يُتَصَوَّرُ لرجلٍ مثلِ السيد كوندامين بسمعته المعروفة أن يقفز من أعلى السطح الذي يرتفع نحو عشرين قدماً عن الأرض، طمعاً في امرأة تنام جنب زوجها، بل لا أحسبه عرف حتى بوجود تلك المرأة إلاّ حين بدأت الصراخ. حينها نزل من السطح مُهرولاً يسأل عن سبب ما سمعه من ضجيج، فأجابه مضيفنا موضحاً له ما تقوله المرأة، مضيفاً أن جيرانه يتربّصون به، وأن هذه المغامرة قد تكلفه الكثير.

وقد ذهبت امرأة السوء هذه لتوِّها تشتكي إلى «التيتابان»، وهو بمثابة قاضٍ للشرطة وجابٍ للضرائب، قائلة إن الإفرنجي الذي ينزل عند «غايوت» اقتحم عليها بيتها وأراد اغتصابها، وإن «غايوت» قد سهّل له جريمته ودلَّهُ على السطح الذي يمكن أن يقفز منه ليدخل دارها. وقد جِيءَ باليوناني «غايوت»، واستمات المسكين في الدفاع عن نفسه، لكنهم زجّوا به في السجن من دون أن

يكلّفوا أنفسهم حتى سماع دفاعه.

أرسل القاضي في طلب السيد كوندامين. كانت الساعة تشير إلى التاسعة مساء، وكنا في البيت ننتظر عودة مضيفنا حين دق الباب أربعة من الأتراك جاؤوا يقولون للسيد كوندامين إنّ عليه أن يمثل فوراً أمام القاضي. وبينما هم يكلمونه وهو مُعرِضٌ عنهم جاء ستة جنود آخرين تبعتهم مجموعة أخرى ثم أخرى، فما هي إلاّ هنيهة حتى أصبحوا نحو ثلاثين جندياً. غير أن السيد كوندامين رفض الانصياع لأمر الرجل الذي أرسل يطلبه في هذه الساعة المتأخرة من الليل، فتولّى عنهم ودخل كوخاً كنّا ننام فيه، فتبعه الجنود إليه، وقد بدا جلياً أنهم مصمّمون على الذهاب به معهم سواء شاء أم أبى. فلما رأينا منهم ذلك استخرجنا سيوفنا ومسدّساتنا، متأهبين للدفاع عن أنفسنا إذا لَزِمَ الدفاع، ثم جلسنا على مصطبة أمام أسِرَّتِنا وقلنا لهم إن السيد كوندامين يريد أن ينام الآن، وإن عليهم أن ينصرفوا. ويبدو أن أسلحتنا قد أخافتهم كما سيتبين ذلك لاحقاً، إذ انصرفوا جميعاً، وخلا المكانُ منهم فاضطجعنا طلباً للراحة.

فلما كان الصباح ذهب السيد كوندامين إلى رجل كان آغا في الماضي القريب قبل أن يتم عزله، وكان قد تعرّف عليه في اليوم السابق، فأخبره بما وقع وطلب منه أن يتدخّل لدى القاضي ليجعله يُفرِج عن «غايوت». فذهب الآغا عند القاضي الذي لا شك في أنّ رجاله كانوا قد أخبروه بما حدث، إذ عاجَلَهُ بالقول إننا لو كنا قد قتلنا من رجاله أحداً لشُنِق اليوناني في المقابل. فأخذ الآغا يحاول أن يشرح له كيف أن المرأة قد اتهمت السيد كوندامين زوراً بإيعاز من زوجها جارِ اليوناني، لكن القاضي أصرّ على أن يؤدّي إليه اليوناني ليرةً كاملة قبل أن يطلق سراحه، بل أغلقوا محله التجاري وأخذوا المفاتيح فلم يعيدوها إليه إلاّ بعد أن أطلقوه.

في اليوم نفسه ذهبت إلى الميناء لأرى متى ستكون السفينة جاهزة للإبحار، فوجدت القبطان في كربٍ عظيم من محاولة سدّ ثغرة جديدة ظهرت في جسم سفينته فجعلت الماء يتسرب إليها بكميات كبيرة تجاوزت بخمسة أشبار مستوى الماء الذي تحمله السفن عادة في قعرها لتؤمّن به توازنها. وجاءه رجال يونانيون فأخذوا على أنفسهم، إن هو أعطاهم عشرين قرشاً أن يصلحوا الخرق ويجعلوا السفينة قادرة على الإبحار من جديد. وقد صعدوا على متنها وأنا هناك فغطسوا أكثر من عشرين مرة ثم داروا بجسم السفينة من الخارج باحثين عن الثغرة التي يتسرب منها الماء فلم يجدوا شيئاً. ورأى القبطان أن لا فائدة ترجى من وراء ذلك فقرّر أن يُدخل السفينة إلى الميناء ويُضجعها على جنبها كي يستطيع فحصها بحثاً عن الثغرة. غير أن عملية مثل هذه تكلف كثيراً، وهو ما لم يَرُق للملاحين الذين يشاركونه أرباح السفينة، والذين يبدو أن بعضهم كانوا على عِلمٍ بمكان وجود الثغرة، إذ إنهم ما إن

رأوا ما عزم عليه القبطان حتى سارَعوا فأصلحوا العطب وعادوا ليخبروه بذلك، فشرع يستعدّ من ساعته للإقلاع في اليوم التالي.

اليوناني الذي بقي مريضا في يافا

في يوم الثامن عشر؛ يوم الإقلاع، ذهبنا إلى الحمام عند الرابعة صباحاً، فلما خرجنا وبينما السيد كوندامين يتنزّه في المدينة أبصر في دكانِ مُزَيِّنٍ هناك رجلاً يونانياً كان مسافراً معنا على السفينة أصيب بمرض قبل رُسُوِّنا ببضعة أيام، فطلب أن يُسمح له بالنزول إلى اليابسة طمعاً في تحسُّنِ حاله، فلم يسمحوا له بذلك إلاّ اليوم. فلما نزل اليابسة ساءت حالُه أكثر من ذي قبل، وقد كان مضطجعاً على جنبه على حصير في دكان المزيّن حين رآه السيد كوندامين. فلما سأله عما أتى به إلى هناك قال إنه لا يعرف في المدينة أحداً، ولم يجد أحداً يقبل بإيوائه عنده سوى هذا المزيّن.

رقّ السيد كوندامين لحال الرجل، فأمر بنقله إلى عند راهب يوناني يقيم قريباً من مضيفنا، وسأله إن كان يودّ البقاء هناك أم العودة إلى ظهر السفينة لمواصلة السفر معنا، فأجاب قائلاً إنه ليس في حالٍ تسمح له بركوب البحر، وقال إن له في السفينة ستين قرشاً، وقد طلب من السيد كوندامين أن يحملها معه ويتركها له وديعة عند القنصل في أزمير، مضيفاً أنه لا يأمن فيها لو علم الحاكم أو القاضي بأن لديه هذا القدر من المال أن يقتلوه ليرثوا ماله كما جرت عليه العادة، ولا سيما أنّ له إخوة هم أحقُّ بأن يرثوه.

فلما سمع السيد كوندامين ذلك قام بلا تردّد فامتطى حصاناً وذهب بكل شهامةٍ إلى الميناء حيث صعد على متن السفينة فوجد المال كما قال له الرجل، فحمله وحمل ثياب الرجل المريض وباقي المال وعاد. وقد أعطاه بها صكاً بخمسين قرشاً، وأراد أن يعطي للراهب القروش العشرة المتبقية لقاء استضافته الرجل وعنايته به، لكن لا الراهب ولا غيره قبلوا باستضافته، قائلين إن السلطات إذا ما بلغها الأمر فستعاقب مَن أقدَمَ على ذلك، وإن الملابس والمال يجب أن تُسلّم جميعها للقاضي بلا إبطاء، وكذلك كان.

فلما علم القاضي بأنّ المريض قد أودَع مالاً لدى السيد كوندامين أرسل في طلبه تحت ذريعة أنه يريد أن يخبره بشيء، فذهبنا جميعاً وبرفقتنا ترجمان لنجد القاضي جالساً في قاعة الديوان، يحيط به عدد من الإنكشارية وغيرهم. فلما مَثَلنا أمامه قال للسيد كوندامين إن عليه أن يعطيه القروش الخمسين التي لليوناني المريض، فأجابه بأنه فعلاً قد ائتمنه على المال، وأنه قد دفع إلى صاحب المال صكاً بذلك، ولن يدفع إليه هو منها شيئاً. فلما سمع القاضي ذلك قال لنا من خلال الترجمان إنه لن يدعنا نرحل إلاّ

إذا أعطيناه المال، مضيفاً أنه لا يريد الصك بل المال، علاوة على أن صاحب المال يوناني من أهل الذمة، وهو بالتالي من رعايا السلطان، وكل ما يملكه يعود إلى الدولة العثمانية. فما كان من السيد كوندامين أمام إصرار هذا الرجل وما أدلى به من حجج غير منطقية ولا مقبولة إلاّ أن ثار في وجهه قائلاً إنّنا راحلون شاء أم أبى، وإنه لن يعطيه المال الذي ائتمنه الرجل عليه.

مغامرة في يافا

خرجنا لساعتنا من عند القاضي، فعدنا إلى بيت مضيفنا لنؤدي إليه أجرة استضافته لنا ونحمل معنا بعض المشروبات التي كنّا قد اشتريناها. أما القاضي فأرسل من فوره إلى الحاكم يخبره بما حصل، فأرسل هذا في أثرنا تسعة أو عشرة من الرجال ليعتقلونا ويقتادونا إليه. وقد وجدناهم أمام الباب ينتظرون خروجنا، فمررنا من بينهم دون أن يعتقلونا، وسرنا في طريق جانبية تؤدّي إلى الشارع الكبير. غير أننا لم نسر إلاّ قليلاً حتى رأيت السيد كوندامين، وكان على نحو عشرين خطوة أمامي مُستلاً سيفه يقاتل أربعةً من الأتراك أحاطوا به محاولين القبض عليه، فرميت كل ما كان في يدي من متاع وزاد ولحقت به سريعاً وقد استللتُ سيفي. فلما رآني هتف بي أن الخير لنا في أن نقتصر على دفعهم عنا دون أن نقتل أحداً منهم. ورأيتُ أن السيوف لا تخيفهم، فاستللت مسدسي وأريته لهم في ضوء القمر، وما أن رأوه حتى أطلقوا صرخة فزعٍ وولوا هاربين.

تابعنا طريقنا بعد ذلك، لكننا لم نبعد أكثر من خمسمئة خطوة عن المدينة حتى سمعنا جلبة وراءنا، وإذا بمجموعة كبيرة من الرجال بين راكب وراجل يقتفون أثرنا، غير أنهم بقوا على مرمى بندقية منا لا يجاوزون ذلك حذراً. ورأينا أننا إذا ما تابعنا طريقنا من خلال القرية القائمة على أطلال بافوس فلن يجدوا صعوبة في القبض علينا هناك، فسرنا من خلال البساتين كي نصل قبلهم إلى الميناء فنمتطي أول زورق نصادفه ونذهب إلى سفينتنا حتى نجنّب أنفسنا مزيداً من العدوان من قِبل هؤلاء الأنذال. أما هم فحسبونا دخلنا القرية، فأوقفوا خيلهم وراحوا يصرخون بالحرس أن يلقوا علينا القبض. وكم كانت مفاجأتهم كبيرة حين اكتشفوا أننا لسنا هناك، فلم يعودوا يدرون أين نحن ولا أيّ طريقٍ سلكنا. وفي نهاية الأمر ذهبوا إلى الميناء فلما لم يعثروا على أثر لنا أقاموا عند الشاطئ يَتَرَصَّدوننا.

أما نحن فوصلنا قرب الميناء مُحتَمين بسور بستان هناك، ومن ثمَّ رأينا العدد الكبير من الفرسان والجنود المدجّجين بالسلاح كأنهم مقدمون على عملية حربية. كانت الساعة حينئذ تشير إلى التاسعة والنصف مساءً، فلما انتصف الليل رحل الفرسان فدخلوا القرية وبقي المشاة هناك. أمّا نحن فكنا قد

تمكنًا خلال ذلك الوقت من العثور على وسيلة نبلغ بها سفينتا تتمثل في الاستيلاء على زورق من زوارق أَحَدِ مركبين صغيرين كانا راسيين تحت حصن ينتصب قريباً من الميناء.

اتخذنا القرار فعزمنا على تنفيذه فوراً، وسرنا راسمَيْنِ بسيرنا دائرة كبيرة للوصول إلى الشاطئ من دون أن يرانا أحد، وقد أفلحنا في ذلك، وكان البحر هادئاً فسرنا متنقلين من صخرة إلى أخرى حتى اقتربنا قدر الإمكان من الحصن ومن المركبين. فلما بلغنا أقرب نقطة ممكنة منهما جلسنا نتشاور، فقرَّ قرارُنا على إكمال ما بدأناه. ولما كان المركبان يبعدان عنا بما يفوق المئة خطوة، فقد أعددنا أنفسنا للعَوم إذا لزم ذلك.

ربط السيد كوندامين إلى قبعته كتاباً ورزمة من الأوراق، وفعلت مثله بدفتر يومياتي ومسدسي. أما السيوف فقد علقناها على رقابنا كيلا تضايقنا إذا سبحنا، كما خلعنا نعالنا للسبب نفسه. ونزلت إلى الماء أسبُرُ غَورَه، فوجدت أنه لن يتعين علينا أن نسبح أكثر من خمسين خطوة، وعدت أخبر السيد كوندامين بذلك، فقال إنه من الأفضل ألاّ نسبح بملابسنا، وأن نتركها على صخرة عند الشاطئ على أن نعود لاسترجاعها عندما نحصل على الزورق، لكني اعترضت قائلاً إن أجسامنا العارية ستجعل اكتشافنا سهلاً، علاوة على أنّ رجوعنا إلى الشاطئ لاسترجاع الملابس فيه خطر، غير أنه صمّم على رأيه وأعرض عن كلامي، فاضطررتُ إلى مُسايَرته.

نَضَوتُ عني ملابسي على مضض، ودخلنا الماء حوالي الثالثة صباحاً. وبلغنا الزوارق فقطعنا مرساة أحدها وأمسكت به من جانب، بينما السيد كوندامين يصعد إليه من الجانب الآخر. ولما لم يكن به مجداف فقد سرت أدفعه عائداً به إلى حيث تركنا ملابسنا. غير أننا لم نكد نبتعد عشر خطوات عن المركب حتى لمحَنا أحدُ العَسَسِ من أعلى برج الحصن، فصاح بنا باليونانية بما معناه: «إلى أين؟»

لم ندر ما نقول، فبقينا صامتين، وأعاد الرجل السؤال ثانية، فلما لم يجبه أحد أطلق صيحةَ الإنذار، فاستيقظ حراس المركب وشرعوا يطلقون علينا النار؛ إذ حسبونا قراصنة. غير أننا أفلحنا على الرغم من ذلك في الابتعاد نحو الشاطئ حيث استعدنا ملابسنا من على الصخرة. فلما انتهينا من ارتدائها قال السيد كوندامين إن علينا أن نركب القارب سريعاً ونجدف نحو عرض البحر، لكن كيف السبيل إلى ذلك وليس معنا مجداف ولا حتى قطعة خشب نتخذها مجدافاً؟

كان السيد كوندامين قد تعرَّف قبل ذلك في البر على «الكارافاشري»؛ أي قائد المركبين، فارتأيتُ أن خير ما يمكننا فعله هو إرجاع الزورق إلى سفينته بدل البقاء عرضة لنيران المركبين والحصن الذي

أطلق أيضاً طلقة مدفع كُورٍ باتجاهنا. وقد قرَّ عزمي على ذلك، فدفعت القارب على الرغم من احتجاج السيد كوندامين الذي كان على متنه، وسرت به نحو المركب، وهو ما لم يمنع العسس من إطلاق النار علينا لثلاث مرات عن قرب، لكنهم لحسن الحظ لم يصيبونا. فلما بلغنا المركب استقبلَنا مَن عليه بالضرب واللّطم والصفع. وكان القائد لسوء طالعنا غائباً، فلم تُجدِ معهم توضيحات السيد كوندامين ولا تعليلاته.

في تلك الأثناء كان الجنود الأتراك المرابطون على الشاطئ قد سارعوا يركبون الزوارق إثر سماعهم أصوات إطلاق النار، فجاؤوا مشهرين سيوفهم حتى أحاطوا بالمركب الذي كنا عليه. فلما رأيناهم لم نُبدِ مقاومة هذه المرة، فاعتقلونا وعاملونا بكل خشونة وهم يقيّدون أيدينا بالحبال. وقد أحاط بنا أكثر من ثلاثين رجلاً، فلما أبدينا بعض المقاومة حين أرادوا تقييدنا أشبعونا ضرباً. وقد كنت أحسب الجندي التركي أقوى من ذلك بكثير وأشد مراساً، لكن هؤلاء لم يكونوا كذلك، إذ لم تمنعنا ضخامةُ أجسامهم من أن نطرح بعضهم أرضاً بكل سهولة ويُسرٍ. غير أنهم كانوا كثرة، فلم نملك في نهاية الأمر إلاّ الاستسلام، فقيّدوا أيدينا وراء ظهورنا وأنزلونا في زورق ليعودوا بنا إلى اليابسة. ولما كنا حفاة عراة فقد طلبنا منهم أن يسمحوا لنا بارتداء ملابسنا، فأذنوا لنا بذلك.

قام بعض الخدم بإلباسنا ثيابنا بطريقة غريبة، إذ كانوا يُحرِّرون يداً ليدخلوها في كمّ القميص، ثم يقيدونها قبل أن يحرّروا الأخرى. فلما انتهوا من ذلك أعادوا تقييدنا كما كُنَّا، ثم اقتادونا ووراءنا رجلٌ يمسك بحبل مربوط إلى قيودنا. وباختصار ساروا بنا كأننا مجرمون يُقتادون إلى ساحة الإعدام، وقد أحاط بنا ما لا يقلّ عن ستين رجلاً، إضافة إلى ثلاثين آخرين وجدناهم في الطريق قادمين لتأمين العون لأصحابهم عند الحاجة.

ساقونا إلى المدينة على حالنا تلك بأقدام حافية ورؤوس حاسرة ونحن في ضنكٍ عظيم، حتى إذا وصلنا عند الحاكم أدخلونا وأغلقوا الأبواب جميعاً ثم فكوا قيودنا. وقد طلبنا منهم أن يوقدوا لنا ناراً نتدفأ بها ففعلوا، وجلسنا في انتظار أن يصحو الحاكم من النوم. فلما صحا حوالي الخامسة فجراً أرسل في استقدام الترجمان، فما إن جاء هذا الأخير حتى بادر السيد كوندامين يسأل الحاكم عَبرَهُ هل هو من أمر بتقييدنا وإحضارنا في تلك الحال إليه، وبمعنى آخر هل هو من أوصى بأن تُساء معاملتنا على ذلك النحو، فأجاب بالنفي قائلاً إنه غضب لمّا علم بذلك، وإنَّ كل ما أمر به رجاله هو أن يأتوه بنا لنكلّمه، مضيفاً أنه لن يتوانى عن عقاب من أساؤوا إلينا. فلما سمع السيد كوندامين هذا الكلام طلب منه أن يعاقبهم فوراً، فأجاب قائلاً إنه سيفعل، ثم سألنا إن كنا قد أضعنا شيئاً ثميناً، وطرح علينا

مجموعة من الأسئلة الأخرى. فلما انتهى سأله السيد كوندامين إن كان هذا هو كل ما سيفعله لإحقاق حقنا والقصاص ممن اعتدوا علينا. غير أن الرجل انقلب علينا فجأة فلم يشأ أن يفي بوعده بمعاقبة المعتدين، بل عاد يطرح مسألة الخمسين قرشاً، ولما أجابه السيد كوندامين مكرّراً أنه لن يسلّمها إليه، عاد يهدّد ويتوعّد. فلما انتهى من تهديده ووعيده قال له السيد كوندامين إنه سيذهب إلى إسطنبول ليشتكي تقصيره في معاقبة المسيئين إليه، مضيفاً أنه يُحمّله مسؤولية كل ما وقع، ومؤكداً أنه لن يدّخر جهداً في جعله يؤدي الثمن غالياً. فلما سمع الحاكم هذا الكلام شرع يعتذر لنا ويتودّد، وأعطانا خيولاً نركبها حتى الميناء. أما في ما يخص القروش الخمسين فإنّ السيد كوندامين لم يدفعها إلاّ إلى القنصل في أزمير كما أوصاه صاحبها اليوناني المريض.

وصلنا السفينة في حالةٍ يُرثى لها، بملابس رثة مبلّلة وأقدام حافية وأجسام تحمل من الضرب واللطم آثاراً، حتى إنّ القائد بقي فاغراً فاه من الدهشة حين رآنا. وقد لبثنا باقي اليوم ننتظر أن تجفّ ملابسنا، لأنّنا لا نملك غيرها لنلبسه.

الانطلاق من يافا

في مساء اليوم نفسه أقلعنا تحت ريح ضعيفة، فأبحرنا مبتعدين بكل سرور عن تلك المدينة التي لقينا فيها الإساءة والهوان.

يوم التاسع عشر هبت ريح خفيفة من الشمال عاكست سيرنا، وفي اليوم ذاته مات رجل تركي كان معنا، وكان عائداً من الحج، فغسلوه ولفّوه في كفن أبيض من قماش جديد. وكان معنا على المركب آغا قام بدور الإمام، فوضعوا الجثمان على شمال السفينة وأقاموا عليه الصلاة برفع أيديهم إلى السماء ثم وضعِها على لحاهم مرات متالية، وجعلوا يثنون على الميت ويدعون له بالرحمة والمغفرة، ثم أمسكوا بالجثمان من الرأس والقدمين فألقوا به في الماء من دون أن يربطوه بثقل يجعله يغوص إلى الأعماق، والنتيجة أننا بقينا لأزيَدَ من ساعةٍ نراه يتراقص فوق الماء وراءنا.

في اليوم التالي، العشرين من الشهر، دارت الريح لكنها بقيت معاكسة، ومات تركي ثانٍ ففعلوا به مثل ما فعلوا بسابقه.

يوم الحادي والعشرين كان الجو طيلة النهار متقلّباً، وحلّ الليل فزادت الريح من سرعتها، مما جعل الملاحين يشدّون القلوع خيفةَ هبوبِ عاصفة، فلما كانت الحادية عشرة ليلاً تضاعفت سرعة الريح، فأنزلوا القلوع الكبرى، وتابعنا الإبحار بالصغرى فقط.

العاصفة

يوم الثاني والعشرين؛ يوم الاعتدال الخريفي، زادت الريح الشمالية الغربية من قوتها، فراح الموج يضرب السفينة ضربات مروعة، وبدا كأن الريح والمطر والرعد والبرق والبرَد جميعاً قد تواعدت على اللقاء في ذلك المكان الواقع بين قبرص وكارامانيا، والذي كنا فيه في خطر محقق. ثم وقعت واقعةٌ كان من شأنها أن أفقدت أشجع الرجال وأفواههم شكيمةً كلَّ أمل في النجاة. لقد انكسرت مضخَّة الماء في سفينتنا، فما هي إلاّ ساعة أو تزيد قليلاً حتى جاوز الماء في قعر السفينة مستواه العادي بأربعة أقدام. أما القائد فإنه على الرغم من حنكته وطول مِراسِه لم يستطع أن يفعل إزاء ذلك شيئاً، فبدا محبطاً ذاهلاً مثله في ذلك مثل أصغر ملاح على السفينة. وزادت ضرباتُ الموج الغاضب قوةً حتى أيقنَّا أننا غارقون لا محالةَ. وكان لا بد من اتخاذ قرار، فأمر القائد بالجنوح بالسفينة حتى تضرب الريح مؤخرتها وتقذف بنا إلى شواطئ كارامانيا. أمّا الأتراك وجانب من البحارة فكانوا من الغثيان والدوخة والوجع في حال لا تجعلهم قادرين على تقديم أي عون، وأما أنا والسيد كوندامين والقائد فجعلنا نعمل في الأسفل فيما ثلاثة بحارة أو أربعة يصارعون للتحكم في الدفة والقلوع.

عند التاسعة مساء دخلنا خليج «ساتاليا» Satalie الشهير بكثرة ما غرق فيه من سفن، وبينما نحن نستعد لإنزال القوارب كي نلتحق باليابسة إذ بالريح تدور فتصبح طيبة في اتجاه سيرنا، فعاد الأمل إلى نفوس البحارة الذين سارعوا في إصلاح المضخة، ثم أبحرنا وخَلفَنا الريحُ، فخرجنا من الخليج الرهيب بأسرع مما دخلنا إليه. وقد اضطروا إلى تشغيل المضخة لأزيد من ثلاث ساعات ليفرغوا قاع السفينة مما تجمَّعَ به من ماء زائد.

بلغ بي التعب مداه من صراعنا مع العاصفة، فاضطجعت فوق الصندوق الذي خُصِّصَ لي فراشاً في غرفة القائد. أما السيد كوندامين فخُصص له صندوقٌ من مثل ما يُستعمَل في حفظ أدوات العمل، من دون ملاءات ولا أغطية، والحقّ أنّ القائد نفسَه لم يكن خيراً منا فراشاً.

بينما أنا مستغرق في النوم فوق فراشي الوثير استيقظت مرتعباً على إثر ضربة موجٍ كانت من القوة بحيث أسقطتني عن الصندوق ثم قلبَته فوقي، حتى خِلتُ أن الغرفة كلها، حتى الكتب والشمعدان، ستنهار فوق رأسي. جاء السيد كوندامين الذي كان ساعتها على سطح السفينة فبادرني يقول إنه يَعجَب كيف أستطيع النوم وقد كدنا نموت جميعاً. فلما سمعت قوله ذاك حمدت الله على النجاة، وصَغُرَت في عيني الجروحُ الخفيفة التي أصبت بها من أثر سقوط الصندوق فوقي. ثم فصعدت إلى السطح لأجد البحر أكثر هياجاً بكثير مما كان عليه الأمر من ذي قبل؛ لأن الريح الشمالية الغربية كانت تلتقي بالريح

الشرقية التي خرجنا بفضلها من الخليج، فتدفع كل منهما الموج من ناحيتها إلى أن يلتقي الماءان في المنطقة التي كنا فيها، فيتصارعان ويتصاعد زَبَدُهما إلى عنان السماء. فلمّا كانت الثامنة صباحاً سكنت الريح والماء معاً، فبقينا في مكاننا بلا حراك.

عند غروب شمس الثالث والعشرين من الشهر أبصرنا جزيرة رودس، لكننا لم نبلغها إلاّ في الرابعة من عصر الثامن والعشرين. فما وَصَلنا اليابسةَ حتى نزلنا بلا إبطاء، غير آسفين على مغادرة تلك السفينة المتهالكة وطاقمها غير الكُفء.

نزلنا فذهبنا للقنصل الفرنسي السيد «دو لا كوتير» de la Couture الذي استقبلنا بحفاوة وإكرام.

في اليوم التالي؛ التاسع والعشرين، اكترى السيد كوندامين من أجل نقلنا عبر الأرخبيل مركباً صغيراً بثلاثة بحارة وشراع لاتيني صغير. وقد أعارنا السيدُ القنصل لحافاً وملاءة للنوم، وأخذنا معنا زاداً تمثّل في بعض الخبز والنبيذ والدجاج الحيّ.

وصف مدينة رودس

مدينة رودس هي عاصمة الجزيرة التي تحمل الاسم نفسه، وتقع على شاطئ البحر، عند سفح تلّ في شمال الجزيرة، وتحيط بها تلال تنبع منها كثير من عيون الماء العذب.

وقد كان للمدينة في ما مضى صفّان من الأسوار يعلوها عددٌ من الأبراج الكبيرة. وكان الحي الذي يقيم به الفرسان أفضل أحياء المدينة تحصيناً، يحميه البحر من شماله، وتقف دونه من الجنوب والشرق حصون وأبراج. أما الميناء فكان يغلقه حاجزان كبيران لا يسمحان بمرور أكثر من سفينة واحدة، وعند مدخله كان يقف برجان عظيمان على الصخرتين اللتين كان يقف عليهما قبلها التمثال البرونزي الشهير المعدود من بين عجائب الدنيا السبع. كان ذلك التمثالُ المُقام تكريماً للشمس هائلاً بطول يبلغ السبعين باعاً، وهو من عمل المهندس «كاريس» Charès تلميذ «ليسيب» Lysippe، وكانت إحدى ساقي التمثال ترتكز على إحدى الصخرتين والثانية على الصخرة الأخرى، بحيث كانت السفن التي تدخل الميناء تمرّ بين ساقي العملاق بأشرعتها مرفوعة، حتى جاء زلزال فهدّمه، ويقولون إن معاوية خليفة المسلمين قد أخذ منه حِمْلَ اثنين وسبعين جملاً من المعدن.

الانطلاق من رودس

غادرنا الجزيرة في الخامسة عصراً على متن مركبنا الصغير. ولما كان الطقس هادئاً فقد مضى اليونانيون الثلاثة يجدّفون حتى الساعة العاشرة ليلاً، حيث رسونا في خليج صغير عند رأس من الأرض، فنزلنا وأوقدنا ناراً للعشاء. فلما انتهينا من الأكل اضطجع الملاحون ليأخذوا قسطاً من الراحة، فناموا حتى الثالثة بعد منتصف الليل، ثم قاموا فركبنا وانطلقوا يجدفون بجدٍّ مثلَ فِعلِهم بالأمس. ولما كان المركب يسير بالشراع والمجاديف معاً فإننا لم نُضِع وقتاً، إذ كنا نرفع الشراع حين تهب الريح، فإذا سكنت أنزلناه وسرنا بالمجاديف. وكنا نرسو عند كل مساء فنوقد النار ونذبح إحدى الدجاجات لعشائنا، نأكل نحو ربعها ونترك الباقي لغدائنا في اليوم التالي.

في الثالث من أكتوبر / تشرين الأول ألقينا مرساتنا قرب جزيرة «ساموس» Samos، فبتنا ليلتنا على المركب، وبقينا فيه شطراً من النهار، ثم نزلنا البرّ فقمنا بجولة في جزء من الجزيرة، حيث رأينا شجرةً تعطي ثمراً أحمر اللون لذيذ الطعم، يشبه إلى حدّ كبير الكرز الأحمر. وأقلعنا عند الرابعة عصراً، فلما كانت السابعة مررنا بمضيق «ساموس»، حيث أراد الملاحون أن يتوقّفوا للمبيت بذريعة أنهم لا يعرفون بالتحديد أين توجد مدينة «سكالا نوفا» Scala Nova التي كنا نريد النزول عندها. لكن لمّا كانت الريح طيبة فقد أرغمناهم على مواصلة الإبحار، فجاوزنا المدينة بنصف فرسخ قبل أن نلقي المرساة للمبيت.

الوصول إلى سكالا نوفا

نزلنا اليابسة عند التاسعة صباحاً فدخلنا المدينة نحمل معنا ملابسنا وهي كل ما نملكه من متاع، واكترينا خيلاً للذهاب إلى أزمير ونحن نظنُّها على مسافة لا تزيد عن ثمانية فراسخ بحسب ما يتّضح من خريطة السيد بيرتيلو Berthelot. وقد التقينا في المدينة برجل من مدينة البندقية أكّد لنا أنّ سفن القافلة الملكية لا تزال راسية في أزمير.

ومدينة «سكالا نوفا» توجد قرب «إيفيس» Ephèse التي وددنا لو استطعنا زيارة أطلالها على الأقل، لولا ضرورة الإسراع للّحاق بالقافلة في أزمير.

في اليوم نفسه؛ الخامس من أكتوبر / تشرين الأول غادرنا المدينة برفقة دليل تركي، على نية أن نبيت ليلتنا في أزمير. لكن بعد أن سرنا أكثر من ثماني ساعات دون توقف بين الأحراش والغابات التي تملأ أرض الأناضول، وعلى حين خِلنا أنفسنا على مقربة من مقصدنا، تَوَقّفنا على مرمى بندقية

من قرية صغيرة وقفَت على مقربة منها قافلةٌ للاستراحة. هناك أراد دليلنا أن يترجّل ليتناول عشاءه ويطعم خيله. وقد حاول السيد كوندامين حملَه على مواصلة الطريق رغبةً في ربح الوقت، لكن كيف السبيل إلى إفهام ذلك للتركي الذي لم يكن يتكلّم إلاّ لغة بلاده؟ والتقينا برجل يوناني من القافلة يتكلم الإيطالية أكد لنا أننا لم نقطع إلاّ نصف المسافة إلى أزمير، وأننا حتى لو واصلنا طريقنا بلا توقُّفٍ فلن نبلغها قبل الرابعة من صباح الغد. لم يجد السيد كوندامين إلاّ النزول عند هذا الكلام المنطقي، فترجّلنا وأعددنا أنفسنا للعشاء والراحة. ولمّا كان الوقت عِشَاءً ونحن لم نتناول بعدُ غداءنا فقد انطلقتُ إلى القرية بحثاً عن بعض الطعام، حيث لم أجد إلاّ خبزاً وبيضاً عدت بهما، فتناولنا طعامنا في الغابة قرب نار أوقدها أهلُ القافلة هناك، وقد شوينا البيض في رمادها.

بعد العشاء نمنا لساعةٍ تَناوُباً، فلما كانت الحادية عشرة ليلاً جعلنا دليلنا ينطلق بنا فبلغنا أزمير في السادسة صباحاً، حيث وجدنا سفن القافلة وقد ابتعدت عن الشاطئ تأهُّباً للإبحار، فلم تعد تنتظر إلاّ هبوب ريحٍ طيبة لتُقلع.

وصلنا عند السيد «دي بيلران» de Pellerin، فركبنا زورقا يُقِلُّنا إلى السفن. ورآنا الملاح المكلّف بالحراسة حين اقتربنا من السفن، وتَعرَّفَنا بفضل منظاره، فأسرع يخبر السادة الضّبّاط بمقدمنا، فخرج هؤلاء وأغلبهم باللباس الداخلي يستقبلوننا، وبقوا على سطح السفينة حتى بلغناها، وصعدنا على متنها. ولست أجد من الكلمات ما أصف به الفرحة التي استقبلنا بها الجميع على ظهر السفينة، حتى بدوا كأنهم في يوم عيد فرحاً بعودتنا، على حين كان غيابنا الطويل قد جعلهم يعتقدون بأننا قد تعرضنا للقتل خلال زيارتنا للأماكن المقدسة، أو غرقنا في أثناء عبورنا البحر.

استقرّ بنا المقام على السفينة، فأهدينا لبعض الضباط هدايا مما يأتي به الحجاج، صلباناً وسُبَحاً من بيت المقدس. تناولنا بعد ذلك طعام الغداء، فلما كانت الساعة الرابعة عصراً هبّت ريح طيبة، فأعطى قائد القافلة أمره بالإقلاع، وأطلِقت طلقة المدفع المعهودة إيذاناً بالرحيل.

لم نغادر السفينة إلاّ حين شُدت القلوع للإبحار. وكنا قد اتخذنا الاحتياط بإنزال متاعنا، حيث أودعناه لدى السيد «سانت أمان» Saint - Amant، وهو تاجر فرنسي مقيم في تلك المدينة.

عدنا إلى اليابسة مسرورين بكوننا وصلنا في الوقت المناسب، واستعدنا متاعنا قبل إبحار القافلة، إذ لولا ذلك لكنا في حرج عظيم؛ لأننا كنا حين وصولنا إلى أزمير في حالة يرثى لها حقاً، بقمصان رثة ممزّقة من أثر الفراش الخشن، وشَعرٍ أشعث قد استطال وتَلَبّد، وجوارب لم يبق منها إلاّ خيوط،

ونعالٍ متلاشية لم يبقَ منها شيء. أضف إلى ذلك أنّ سيفي كان يتدلى إلى جانبي عارياً من غير جراب، لأني أضعت جرابه في أحراش الأناضول. وحصيلة القول أننا لو لم ندرك السفن ونسترجع متاعنا لاضطررنا إلى البقاء مختبئين لأيام.

رحلت سفن القافلة مبحرة نحو فرنسا، فلم يعد للسيد كوندامين همٌّ إلا انتظار فرصة سانحة للعبور إلى إسطنبول، ولم تظهر أي فرصة في الأفق باستثناء سفينة القبطان «أرتو» Artault التي كانت ستبحر بعد ثمانية أيام حاملة القنصل ونائبين من نواب الأمة لبحث بعض المسائل التجارية مع السفير الفرنسي لدى الباب العالي السيد «فيلنوف» Villeneuve، فلم يبق إلاّ أن ننتظر إقلاع تلك السفينة.

حمامات ديانا

ذهبنا خلال مقامنا بأزمير لزيارة حصن يدعى «حمامات ديانا»، يقع على قمة جبلٍ وعر، فوجدناه خالياً لم يعد يسكنه أحد، ولم تبق به إلاّ بعض الأبراج وقليل من التحصينات، وساحة كبيرة محاطة بالأسوار، ومسجد قيل لنا إنه كان في الماضي كنيسة لأهل جنوة. وفي الحصن صهاريج مياه كبيرة جافة ليس فيها ماء، وهي مستطيلة بسقف مقبّب، يمتد الواحد منها بعد الآخر مُكَوِّنةً قنوات تحمل أسقفَها أعمدةٌ سميكةٌ قطرُ الواحد منها بين خمسِ أقدامٍ وستٍّ. وإلى جوار بوابة الحصن يوجد تمثالٌ لرأس امرأة من المرمر، قيل لنا إنه للمرأة الفارِسَة التي أعطت اسمها للمدينة. ويرى الزائر من أعلى البرجِ المدينةَ والمرسى وحتى جزءاً من الخليج. وليس في أزمير ميناءٌ، لكن المرسى الطبيعيّ مغلق من الجانبين فيبدو كأنه ميناء.

وصف أزمير

أزمير مدينة من مدن الأناضول، تقع في أقصى خليجٍ يعرف باسمها، وهي مبنيّة على شكل مدرَّج على السفح الغربي من هضبة مرتفعة. والمدينة كبيرة شاسعة على الرغم من أنّ أكثر من نصف مبانيها أصبح خراباً كما يتبدّى ذلك من الأطلال الكثيرة الموجودة فيها، ويقيم بها نحو أربعين ألف تركي واثني عشر ألف يوناني وسبعة آلاف أرمني وستة آلاف إلى سبعة آلاف من اليهود. وأمّا التجّار المسيحيون الأوربيون الذين يقومون بالأعمال التجارية كلّها في المدينة فليسوا كُثراً.

وكل واحد من هذه الشعوب يمارس عقيدته بكلّ حرية؛ فللأتراك في المدينة خمسة عشر مسجداً، ولليهود ستُّ بِيَعٍ، وللاتين ثلاثُ كنائس، ولليونان كنيستان وللأرمن كنيسة واحدة. أما الرهبان

الفرنسيسكان فلهم فيها دير رائع الجمال يتخذونه معبداً يقيمون فيه القُداس، ومثلهم الرهبان المتزمّتون وكذلك الفرنسيسكان الإيطاليون. ويقطن الأتراك واليونان والأرمن واليهود جميعاً في أعالي الهضبة، فلا يقيم في الأسفل عند شاطئ البحر إلاّ الإفرنج؛ أي المسيحيون الأوربيون، وهم الفرنسيون والإيطاليون والإنجليز والهولنديون، لكلّ جالية منهم قنصلُها الذي يمثّلها هناك. وتشهد المدينة رواجاً تجارياً كبيراً، حيث تُعقد فيها صفقات هامة لبيع وشراء الحرير والقطن والزيت والقمح. وللقناصل جميعاً ولبعض التجار كذلك في دُورهم أبواب تنفتح على البحر مباشرة، فإذا ضرب البلادَ طاعونٌ أغلقوا الأبواب المُفضِيَةَ إلى البرّ وفتحوا الأخرى، فتَعَاملوا مع السفن التي ترسو عند مراسيهم الخلفيةِ وقطعوا كلّ صلةٍ بالمدينة.

يتمتع الناس في أزمير بحرّية كبيرة، حتى إن كثيراً من التجّار لديهم منازل استجمامٍ في الريف، وهم يخرجون وقتما شاؤوا للقنص، فلا يخشون عدواناً من أحد.

الانطلاق من أزمير

لمّا كان موعد الإقلاع محدداً في السادس عشر من أكتوبر / تشرين الأول، فقد امتطينا بعد العشاء من ذلك اليوم متنَ السفينة «الإسكندر الأكبر» Alexandre le Grand، بقيادة القبطان «أرتو». وقد صعد أفراد الجالية جميعاً معنا على متن السفينة لتشييع السيد القنصل ووداعه. وأكملنا الصعود إلى السفينة، فرُفِعَت المراسي، وما إن انتصف الليل حتى كنا مبحرين والقلوع مُشْرَعَة.

يوم السابع عشر من الشهر جاوزنا جزر «دورلاك» Dourlac، وفي العشرين منه بلغنا رأس «بابّا» Babba، فصادفنا فيه ريحاً هوجاء أرغمتنا على أن نلقي مراسينا قبالته.

ألقينا المراسي عند العاشرة صباحاً، وبعد الظهر نزلنا اليابسة، فوجدنا هناك قرية صغيرة تحمل اسم الرأس، وحصناً صغيراً لحماية السفن التي ترسو هناك. ومن الممكن تشييد ميناء جيد في المكان، ويبدو أنهم قد بدؤوا فعلاً في بنائه، لكن مَن يعرف مدى كسلِ الأتراك وفُتورِ همّتهم يدرك أنّ البناء لن يكتمل قبل زمن طويل.

في اليوم التالي سكن هياج الريح فأبحرنا، وفي الثالث والعشرين من الشهر جاوزنا جزيرة «تينيدوس» Ténédos، وحينها أبصرنا الساحل، بل والمكانَ نفسَه الذي يقولون إنّ مدينة طروادة كانت تقوم فيه، حيث يوجد مرسى طبيعي صغيرٌ يقولون إنه كان ميناءً للمدينة أيام كان لها شأن. وعند العاشرة صباحاً جاوزنا رأسَ الإنكشارية الواقعَ عند طرف ساحل طروادة. وبلغنا مضيق

الدّردنيل، لكن الريح دارت عند ذلك فأصبحت شمالية، مما اضطرّنا إلى إلقاء المراسي عند مدخل المضيق.

يومي الرابع والعشرين والخامس والعشرين من الشهر بقيت الريح شمالية، فلبثنا مكاننا، لكننا في اليوم التالي نزلنا برَّ البوسفور على ساحل «تراسيا» Trace، حيث أصبنا كثيراً من الطرائد.

حلّ يوم الثامن والعشرين ولم تهدأ حدّة الريح، فقرّر السيد كوندامين النزول من السفينة ومواصلة طريقه إلى إسطنبول براً عوض الانتظار تحت تلك الريح الشمالية المعروفِ عنها أنها كثيراً ما تهبّ على تلك البقاع لمدة شهر كامل أو يزيد.

وغادرنا السفينة فعلاً في اليوم نفسه، فامتطينا قارباً شراعياً لينقلنا إلى حصن الدّردنيل حيث يوجد نائب قنصل فرنسي.

حصنا الدردنيل

يقوم على مدخل مضيق الدردنيل حصنان، أحدهما على الساحل الآسيوي والآخر على الساحل الأوربي، تعلوهما بطاريات مدفعية لضرب كل سفينة تدخل المضيق أو تخرج منه من دون إذن حاكمي الحصنين. ومدافع تلك البطاريات هائلة، يرمي الواحد منها قذائف تزن الواحدة منها خمسمئة رطل، وهي كورٌ من مرمرٍ مستديرةُ الشكل يبلغ قطرُ الواحدةِ منها قدمين وثلث القدم. وهناك خمس وعشرون فتحة مدفعية في الحصن الأوربي، أمّا الآسيوي فيحمل أربع عشرة فتحة في مواجهة البحر، وثماني فتحات على الجانب من جهة المضيق. وقد بدت لي المدافع الموجهة إلى البحر غير قادرة على توفير دفاع؛ لأنها موضوعة على الحجر مباشرة، مما يجعلها عاجزة عن إطلاق أكثر من طلقة واحدة، بعدها يتعيّن توجيهُها من جديد، ناهيك عما تتطلبه إعادةُ شحنها من وقت طويل يتيح مرور أكثر من عَشرِ سفنٍ عبر المضيق.

يوم السابع والعشرين أعطانا نائب القنصل الفرنسي السيد «دو فالنيت» de Valnet مركباً صغيراً يُقِلُّنا إلى «غاليبولي» Gallipoli التي تبعد عن إسطنبول نحو عشرة فراسخ.

انطلقنا من الدردنيل في الثانية بعد الظهر، فمررنا قرب «سيسوس» Sestos و«أبيدوس» Abydos اللتين يجعلهما السيد «سبون» Spon في رواية رحلته على شاطئ هذا المضيق على فرسخين من الحصن.

عند الخامسة عصراً تَوَقَّفَ الأتراكُ الذين كانوا يقودون سفيتنا على الساحل الأوربي قرب «زيمينيا» Zéménie الواقعة على قمة جبل يرى فيه الزائرُ آثاراً لأسوار قديمة، يقولون إنها أول موقع افتتحه الأتراك في أوربا في 1356 للميلاد.

ارتاح الملاحون وارتووا، فعدنا نبحر متابعين طريقنا بمحاذاة الساحل مخافة أن تجرّنا التيارات البحرية بعيداً. وعند الثامنة مساء مررنا قرب زورق كان راسياً هناك، فلما جاوزناه رفع مراسيه وأبحر خلفنا كأنه يطاردنا، فشرع ملاحونا يجدفون بكل ما استطاعوا من قوة كي يمنعوه من اللحاق بنا، غير أننا في التاسعة ارتطمنا بقاع رملي آخّرنا قليلاً، مما أتاح لمطاردينا أن يلحقوا بنا ويتجاوزونا. وحين مروا بنا شرعوا يستهزئون ببحّارتنا ويَنعُون عليهم سوء مِلاحَتِهم. بيد أن الأقدار شاءت أن نشمت بهم كما شمتوا بنا، إذ لم يجاوزونا بأكثر من خمسة خطوة حتى اصطدموا بدورهم بقاع رملي أَخَّرَهُم أكثر مما تأخّرنا، فلما مررنا بهم كالَ لهم بحارتُنا الصاعَ صاعين. وسنكتشف فيما بعد أن هذا السباق لم يكن له من هدف إلاّ الوصول أولاً إلى المرسى والظفر من ثمة بالمكان الأفضل للرسوّ...

بلغنا «غاليبولي» في العاشرة مساء، فذهبوا بنا إلى عند يهودي له مصالح مشتركة مع السيد نائب القنصل، فبتنا ليلتنا عنده. ولمّا كان الصباح ووجدنا أنّ الريح لا تزال معاكسة قرر السيد كوندامين ألا يبقى رهين تقلّبات الطقس، فأمر بحارة الزورق بأن يعودوا أدراجهم، واكترى خيلاً نركبها للذهاب براً إلى «رودوستو» Rodosto البعيدة عن «غاليبولي» أربعة وعشرين فرسخاً.

الانطلاق من غاليبولي

غادرنا غاليبولي يوم الثامن والعشرين عند التاسعة صباحاً، فسرنا بين حقولٍ جيدةِ الزرعِ باديةِ العناية، دخلنا بعدها غابة كثيفة رديئة المسالك تبدو كأنها غير مطروقة. وعند السابعة مساء بلغنا قرية تسمى «فيتورا» Vehtora فبتنا ليلتنا فيها.

ذهب بنا الدليل بعد ذلك عند رجل تركي من معارفه بدا لنا رجلاً شريفاً جديراً بالثقة، لم يدّخر وسعاً في الحفاوة بنا، وعلى الرغم من أن دينه يُحرِّم عليه شرب الخمر فقد كان عنده في البيت شيء من النبيذ سقانا إياه، وكان للحَقِّ نبيذاً رديئاً. فلما حان وقت النوم تركنا ننام على الحُصُر والبُسُط التي كنا جالسين عليها.

عند الثانية صباحاً من يوم التاسع والعشرين ودّعنا مضيفَنا وتابعنا طريقنا حتى بلغنا قرية تدعى «هيرتيو» Hertiou، عندها توقف دليلُنا ليشرب كأساً من عصير الفاكهة بانتظار الصباح، ثم واصلنا

المسير فبلغنا «إنجيك» Enégique، فنزلنا في خان هناك تناولنا فيه طعام الغداء. وفي اليوم نفسه عند السادسة مساء بلغنا «رودولفو» Rodolfo، فنزلنا في قصر الأمير «راغودتكي» Ragodtki، حيث لقينا كلّ حفاوة وترحاب.

ولما كانت هنالك سفن شراعية يونانية صغيرة تنطلق كل يوم حاملةً قمحاً إلى إسطنبول فقد ركبنا إحداها في اليوم نفسه بعد العشاء. وقد رافقنا رجال الأمير حتى المركب وأوصوا بنا قائدَه خيراً.

قضينا يوم الثلاثين كلّه مُبحرين في طريق متعرّجة لمقاومة الرياح المعاكسة التي بدت كأنها لم تُخلق إلاّ لنا. وفي اليوم التالي زادت شدة الريح وهاج البحر، مما اضطرنا إلى التوقّف قبالة «سان ستيفانو» San Stefano، حيث ألقينا المرساة في الثانية عشرة زوالاً. وعند الحادية عشرة ليلاً سكنت الريح وهدأت ثورة البحر، فأقلعنا لنبلغ إسطنبول يوم الفاتح من نوفمبر / تشرين الثاني، يوم عيد كلّ القديسين.

الوصول إلى إسطنبول

نزلنا البر فذهبنا مباشرة إلى قصر فرنسا، حيث يقيم سفير الملك لدى الباب العالي السيد المركيز «فيلنوف»، ومررنا بمنطقة ««غالاتا»» فرأينا الدمار الذي أحدثته فيها الحرائق التي التهمتها قبل ذلك بأربعة أشهر فأحالت منها ما يقرب من عشرة آلاف منزل رماداً. وقد سمعت هذا الرقم فلم أعجَب له؛ لأن المنازل كلها مبنية بالخشب المصبوغ من الداخل والخارج، والأزقة ضيقةٌ حتى تكاد الأسطح يلامس بعضها بعضاً، مما يجعل اندلاع النار في أحدها كفيلاً بإحراق العديد منها في ظرف ساعة، ولا يغرُب بالتالي أن يكون العددُ كما ذكرتُ أو حتى أكثر.

وصلنا قصرَ السفير، فطلب السيد كوندامين مقابلةَ كاتب سعادتِهِ السيد «إيكار» Icard الذي كان قد عرفه فيما قبل في باريس. وقد استقبله الرجل بحفاوة، وأدخله فوراً إلى محضر السيد السفير الذي قدّم إليه السيد كوندامين ما كان مكلّفاً بإيصاله إليه من رسائل من فرنسا. بعد ذلك أمر لنا السيد السفير ببيتٍ في القصر نزلنا فيه، حيث بقينا طيلة مقامنا في إسطنبول.

دخول الأمير «سيرباتوفل» Serbatofl

في الخامس من الشهر جاء الأمير «سيرباتوفل» السفير فوق العادة من قبل روسيا لدى الباب العالي، فدخل المدينة دخولاً رسمياً. وقد أرسل السفراءُ جميعهم ممثلين عنهم ورؤساء ساستهم

لاستقبال الأمير، يسوقون خيولاً مطهّمة هديةً إليه.

سار في المقدمة خمسون من الإنكشارية، يتبعهم خمسة وعشرون «شاوشا» بقفاطينهم وطرابيشهم الرسمية، وخلفهم رئيس ساسة السفير الفرنسي يقود أربعة من الخيول، ثم رؤساء الساسة لدى سفراء البندقية وإنجلترا وهولندا ولدى المقيمين العامين لكلّ من ألمانيا وروسيا، يتقدّم الجميع أربعة من وُصَفاء الأمير بلباسهم الرسميّ، واثنان من الغلمان يحملان شعاره، وبعدهم وُصفاء الغرفة الأميرية، ومشى ثمانية من اليونان بلباس طويل صفين على يمين جواد الأمير وشماله، يتبعهم كاتبه الخاص، وبعض الفرسان، وعدد كبير من العربات التي يبدو أنها كانت تحمل متاعه.

بعد ذلك بأيام أُذِنَ للسفير بمقابلة السلطان، فطلب من السادة الإفرنج أن يرافقوه في أثناء هذه المقابلة ليشتدّ بهم عَضُدُه، فكان لنا بذلك شرف حضور هذه المقابلة، بصحبة تجار وأعيان آخرين.

المثول في حضرة السلطان

خرجنا من «غالاتا» في الرابعة فجراً بصحبة الأمير والمقيم العام الرومي وباقي المرافقين، فامتطينا لِعُبورِ الميناء مراكبَ شراعيةً صغيرة أُعِدَّت لهذا الغرض. فلما نزلنا الميناء وجدنا بانتظارنا خيلاً بعثها السلطان لركوبنا، لكن كان يتعيّن انتظار «الشاوش باشي»، وهو بمثابة الحاجب لدى السلطان، فلم يأتِ إلاّ عند السابعة. فلما جاء ركِبنا وسرنا بحسب الترتيب التالي:

سار «الشاوش باشي» على يمين الأمير وقد اعتلى جواداً أبيض مطهّماً بسرج فاخر وسِربالٍ يبلغ الأرض مُطرَّزٍ بخيوط الذهب، ولجام مطعَّم باليواقيت والزمرد. وكذلك كانت سرابيل الخيول الأخرى جميعها مطرزة بالذهب والفضة.

في المقدمة سار الإنكشارية، وخلفهم موكب الأمير والمقيم العام، يتقدّمه الأمير في الوسط، وعن شماله المقيم العام، وعن يمينه الشاوش باشي، وخلفهم سار الفرسان والمرافقون والزوار الآخرون.

عند السابعة والنصف وصلنا باب الصدر الأعظم، فبقينا هناك في انتظار أن يخرج الرجل إلى السراي لاستقبال السفير.

عند الثامنة تابعنا طريقنا لنصل إلى السراي بعد ذلك بساعة، فاجتزنا البوابة الأولى راكبين، ثم نزلنا عند الثانية، حيث استلم ساسة القصر خيولنا. وانتظرنا حوالي ربع الساعة هناك قبل أن يؤذن لنا بالدخول إلى الساحة الثانية، حيث رأينا جمعاً من الإنكشارية من حرس السلطان واقفين صفاً وقد

وضعوا آنية طعامهم أمامهم على بعد نحو مئة خطوة، فلما دخلنا جعلوا يتسابقون نحو آنية الطعام وهم يتدافعون. وللمرء أن يتصوّر بطبيعة الحال كيف انتهى الأمر بكثير من الآنية مندلقةً أرضاً، وكثير من الحرس قد لطخت وجوههم مرقاً من دون أن يذوقوا لقمة واحدة. وقد علمنا فيما بعد أن سباقهم ذاك يحمل تعبيراً سياسياً، وأن السلطان يفضل ذلك على ما يحدثُ حين يكون الإنكشارية غاضبين منه أو من وزيره، إذ يتقدّمون حينها نحو آنية الطعام بخطوات بطيئة، حتى إذا بلغوها قلبوا محتواها أرضاً بضربة من أرجلهم، وهو ما يَكُونُ في العادة مقدِّمَةً لثورةٍ أو عصيان. أما الآن وقد تسابقوا إلى الأكل فتلك علامة رضاهم عن السلطان وعن الصدر الأعظم معاً. وقد صادف يومُ قدومِنا يومَ تَلَقِّيهم أجورهم التي تُصرَف لهم كل شهرين قمريين.

أُدخِل سعادة السفير إلى قاعة الديوان لدى الصدر الأعظم، الذي بدأ بأن بتَّ في قضايا عديدة، وأشرف على أداء أجور الإنكشارية قبل أن يتفرّغ للحديث إلى ضيفه.

أحكام الصدر الأعظم

ينطق الصدر الأعظم بأحكامه بعد قراءة العرائض التي يتقدّم بها المتقاضون، فإذا نطق فلا رادَّ لحكمه.

أداء أجور الإنكشارية

بعد أن تم الحكم في سبع قضايا أو ثمانٍ في أقل من ساعة، جيء إلى القاعة بأربعمئة أو خمسمئة كيس، في كل واحد منها ألف وخمسمئة ليرة من عملتنا. فلما وُضِعت الأكياس أرضاً جعل اثنان من الشواش يرتبانها في كُوَمٍ من خمسة وعشرين كيساً لأداء أجور الفِرَق العسكرية المختلفة.

بعد أن تم ترتيب الأكياس جاء نحو خمسين رجلاً من الإنكشارية فاصطفُّوا على بعد مئة خطوة منها، ووقفوا ينتظرون الإشارة. ثم نادى منادٍ من أحد جوانب القاعة، فانطلقوا يتسابقون إلى المال، حيث حمل كل منهم أجرته، ثم جيء بغيرهم ففعلوا مثل ذلك إلى أن انتهت العملية.

بعدها مُدت الموائدُ وأقام الصدر الأعظم مأدبة غداء على شرف الضيف ومرافقيه. أما السلطان فكان جالساً وراء ستارة يرى من خلالها ما يجري في القاعة، لكن لا يراه أحد.

انتهت المأدبة، فقادوا السفير ومرافقيه إلى مقربة من بوابة الساحة الثالثة، حيث خُلِعت خلَعٌ سَنيَّةٌ من جلابيب وقفاطين على السيد السفير والفرسان من مرافقيه وضباط سفارته.

بعد الانتهاء من ذلك دخل الصدر الأعظم إلى الساحة الثالثة بين صفين من الحرس، ثم جاء من يدعو السيد السفير ومرافقيه إلى المثول أمام السلطان. عندئذ تقدّم إليه اثنان من الخصيان، فأمسك كل منهما بإحدى كتفيه كأنهما يساعدانه على المشي، ثم اقتاداه على هذه الهيئة إلى الداخل، وكذلك فعلوا بالسادة المرافقين له، وفيهم السيد كوندامين. فلما انتهت المقابلة أخرجوهم بالطريقة الغريبة نفسِها من هناك.

عدنا بعد ذلك إلى الساحة الأولى، فركبنا خيلنا استعدادا للرحيل، وإذا برسول جاء يستَبقي السيد السفير لمشاهدة استعراض الإنكشارية.

وقد قامت هذه الفرقة التي يقولون عنها إنها خيرةُ ما لدى السلطان من جند بأداء استعراضها. ولست أدري مقدار صحة كلامهم عن هؤلاء الجنود، لكن ما أدريه أنه لا هيئتهم ولا أجسادهم توحي بشيء من ذلك. ولست أعلم بين الفرق العسكرية في بلادنا فرقةً أسوأ حالاً من هذه، بل إن الجنود في بلادنا مهما ساءت حال لباسهم وتجهيزاتهم يبقون جنوداً لهم مظهر الجندي المحارب وهيبته، أمّا هؤلاء فأقرب إلى الممثلين منهم إلى الجنود.

لباس الإنكشارية

يسير الرجل منهم بساقين عاريتين ومركوب شرقي في القدمين لا يمسكه إليهما شيء، وليس معه في تلك الساعة من السلاح سوى عصا صغيرة في اليد وخنجر في المنطقة حول الخصر. أما باقي اللباس فلا يزيد عن سروال قصير عريض مفرِط في العرض إلى درجة أنهم يضطرون إلى إمساك تَلافيفه بأيديهم عندما يضطرون إلى الجري، فوقه قميص قصير من جوخ ملون. أما غطاء الرأس الرسمي فيتكون من قبعة حمراء وخضراء تحيط بها عمامة بيضاء بعرض نحو أربع بوصات، تحمل على أعلى الجبهة صفيحة نحاسية مُسْتَدِقّة يضعون خلفها ملاعقهم الخشبية. والصفيحة بطول سبع بوصات إلى ثمانٍ في عرض اثنتين، تنتهي عند منتصف أنف الجندي. ومن خلف العمامة يتدلّى طرفٌ من الثوب الأبيض على الظهر بطول قدم ونصف القدم تقريباً.

كانت فرق الجنود تصطفُّ صفين، يمرّ بينهما جنود الاستعراض في غير ما نظام، حاملين بيدٍ كيسَ النقود الذي تلقّوه أجراً، وممسكين باليد الأخرى بتلابيب سراويلهم العريضة، حتى إذا كانوا أمامنا اجتازوا مهرولين كأنهم يريدون إيهامنا بقدرتهم على العدو السريع.

بعد انتهاء الاستعراض مرَّ آغا الإنكشارية بين الصفوف وهو يحيّي بهزاتٍ من رأسه الجنودَ

المصطفين على الجانبين، ثم تبعه منادي السلطان، وأخيراً الصدر الأعظم الذي مرّ وهو يحيي الجنود بإيماءات من رأسه مثلما فعل الآغا.

انتهى كل شيء أخيراً، فعدنا إلى الميناء بالترتيب نفسه الذي جئنا به منه، حتى إذا وصلنا تركنا الخيل وركبنا المراكب الشراعية الصغيرة التي جاءت بنا صباحاً.

في المساء نفسه أقام الأمير مأدبة عشاء فخمة على شرف السيدين المقيمين العامين الروسي والألماني والضباط الذين رافقوه في زيارته للسلطان.

شكوى إلى السيد السفير الفرنسي بشأن ما تعرضنا له على يد حاكم «بافا»

لم تكن الإساءات التي تعرّضنا لها في بافا مما يمكن نسيانه، وذلك ما جعل السيد كوندامين يتقدّم بشكوى في شأنها إلى السيد السفير «فيلنوف»، الذي حرّر من فوره مذكرة في ذلك الشأن، ورفعها إلى الباب العالي، فحصل على الحكم التالي:

أمر موجّه إلى حاكم جزيرة قبرص، بشأن قاضي الأمن في بافا

بمَقدَم هذا السيد النبيل، الفارس «دي كوندامين»، تعلمون أن سفير إمبراطور فرنسا، أعلى الملوك المسيحيين قاطبةً شأناً وأرفعهم مكانة، السيد المركيز «فيلنوف»، الذي نرجو له خير المآل وحسن العاقبة، قد رفع إلى بابنا العالي مذكّرة يخبرنا فيها بأن السيد كوندامين، وهو فارس فرنسيّ، كان قد أقلع قبل ثلاثة أشهر من جزيرة قبرص على متن سفينة فرنسية، لكن سوء الأحوال الجوية أرغم سفينته على الرسوّ على ساحل الجزيرة نفسها، في مرسى بافا. وكان على متن السفينة رجل يوناني من أهل الذمة أصابه مرض، وعجز عن إتمام السفر، فنزل بالجزيرة، وعهد إلى السيد كوندامين بخمسين قرشاً طلب منه أن يؤديها إلى رجل في أزمير له عليه دين. وقد قبل الفارس الفرنسيّ بكل أريحية أن يؤدي هذه الخدمة للرجل المريض، وأعطاه صكاً مقابل ماله وقّعه له بيده. فلما سمع قاضي الشرطة بذلك بعث برجاله يلقون القبض على الفارس، وعلم هذا بما يُبيَّتُ له، فامتطى زورقاً والتحق بأحد المراكب الشراعية الراسية هناك على أمل اللحاق بسفينته، لكن الجنود لحقوا به على ظهر المركب مسلحين بالسيوف والبنادق، فأمسكوا به وأهانوه، وساقوه مكبّلاً إلى القاضي الذي أمره بأن يعطيه الخمسين قرشاً، فلما رفض الانصياع هدّده بالقتل. وإذ أخبرنا السيد السفير المشار إليه أعلاه بأنّ الفارس تعرض لشتى أنواع الإذلال والمهانة، ولم يستطع مغادرة الجزيرة إلاّ بشقّ الأنفس، فإنه قد طلب منا أن نصدر

في هذا الشأن حكماً، وقد منحناه هذا الحكم. وإننا نصدر إليك، أنت ممثّلنا في جزيرة قبرص، الأمر بأن تلقي القبض على هذا القاضي الذي حمله الجرأة على ارتكاب جريمة كهذه في حقّ العدالة وفي حق الاتفاقات السلطانية، وأن تودِعه السجنَ بعد أن تذيقه من العذاب ما يوازي سوء فعله، وتجرِّدَه من لقبه، وتعتبره إلى الأبد غير كفء لممارسة المسؤولية، وذلك كي يكون عبرةً لغيره، ويكون في عقابه رادع له عن فعل السوء. لهذا السبب نبلغك أمرنا هذا، وعليك بالمسارعةِ في تنفيذه، وعدمِ التهاون فيه، ولا السماحِ لأحدٍ بالتهاون.

وبه العلم، وعليه ختمنا الشريف، وحرّر في منتصف شعبان من عام 1144 للهجرة.

إذا كان هذا القرار قد حظي بالتطبيق العاجل كما أراد له السلطان، فلا شك في أنّ الفرنسيين الذين سيزورون تلك البلاد بعدنا سيحظون باستقبالٍ خيرٍ من ذاك الذي لقيناه.

والحق أن ذاك هو السبب الرئيس الذي من أجله تقدم السيد كوندامين بشكواه، فلو أننا تناسينا الأمر وغفلنا عنه فلا شك في أنَّ مَن كان سيأتي بعدنا إلى تلك البقاع كان سيلقى أيضاً مهانةً وسوءَ معاملةٍ في أي ميناءٍ نزل فيه، ولربما تَعَرَّضَ لما هو أسوأ. أما وقد تقدم بشكواه وحصل على الحكم السلطاني بعقاب المعتدي، فلا شك في أنَّ ذلك سيكون عبرة للناس لا في تلك الجزيرة فَحَسْبُ، بل في كل المرافئ التي لنا فيها مصالح تجارية.

في الفاتح من ديسمبر / كانون الأول بلغنا مدخل البحر الأسود الذي تدخل عبره المياه إلى خليج «بروبونتيد» Propontide لتضرب أسوار السراي. وأعارنا سعادةُ السفير المركيز «فيلنوف» قاربَه، فركبنا من «توفانا» Tophana، وبعد أن جاوزنا جسر «أوكسين» Euxin نحو ثلاثة فراسخ توقفنا عند «بوجوكدير» Boujocdere، حيث يملك السيد السفير منزلاً ريفياً، بقي فيه قسم من السادة الذين كانوا معنا، فلم يبق برفقتنا حتى مدخلِ البحر الأسود إلاّ نائب الجالية الفرنسية في أزمير السيد «دو سيلفي» de Silvie.

ركبنا من «بوجوكدير» زورقاً صغيراً بثلاثة ملاحين يسوقونه بالمجداف. ولما كان البحر هادئاً أو يكاد فقد بلغنا في أقل من ساعتين قرب العمود المعروف باسم عمود بومبيي القائم خارج المضيق قبالة المنارتين الأوربية والآسيوية.

عمود بومبي

يقوم هذا العمود على نُتوءٍ صخري مرتفع، على بعد نحو ثلاثمئة خطوة داخل البحر قبالة المنارة الأوروبية، ويصعد إليه الصاعدُ بجهدٍ كبير وبغير قليلٍ من المخاطرة، ولا بد من استعمال اليدين علاوة على القدمين للوصول إلى أعلى الصخرة، ومن تَزِلّ به القدمان عن الطريق الضيقة التي لا يزيد عرضها عن بوصتين، والتي تمضي مصعدة كالثعبان على حافة الصخرة حتى أعلاها، يجد نفسه يهوي من على ارتفاع لا يقل عن ثمانين قدماً. ولا يوجد في أعلى الصخرة إلاّ قاعدة العمود، وهي تحمل كتابةً قد مُحيت، فلم يعد يبدو منها سوى القليل. وعلى الرغم من أنّ العمود يسمى عمود بومبي فإنّ الكتابة البادية تتحدّث عن الإمبراطور أغسطس. أضف إلى ذلك أنه لا يوجد مؤرخ واحد يتحدث عن قدوم بومبي إلى هذا المكان بعد هزيمة «ميتريدات» Mithridate واستسلامه للإسكندر، لكنهم على الرغم من ذلك يسمّونه عمود بومبي. وقد سقط العمود تحت ضربات أمواج البحر الأسود الذي يكون في كثير من الأحيان هائجا، ولا سيما حين تضربه ريح الشمال. ومن يَرَ قوة الأمواج التي تتكسر على الصخرة لا يعجب لكونها هدمت العمود الذي انكسر إلى خمس قطع سقطت في البحر بين النتوء الذي كان يقوم عليه العمود وذاك الذي يقابله من الجهة الأوروبية. وتاج العمود من الطراز الكورنثي، ويقولون إنه أقيم هناك كي يُستعمل منارة للسفن، غير أنه اتضح فيما بعد أن القاعدة كانت غير مناسبة للعمود.

يقوم على جانبي هذا المضيق حصنان مثل اللذين على الدردنيل، يحرسان مدخل إسطنبول من جهة البحر الأحمر. وعلى طول الضفتين لا يرى الرائي سوى جنات خضراء وبساتين مزهرة وثمار يانعة ومياه جارية وبيوت وقصور فخمة بهية. ولو أن عطاء الفن المعماري البشريّ اجتمع إلى سخاء الطبيعة في هذه البلاد لكانت بلا شك أجمل بلاد الدنيا قاطبة.

حين عدنا إلى «بوجوكدير» قيل لنا إنَّ السادة الذين كانوا معنا قد رحلوا من هناك وانتقلوا إلى الضفة الآسيوية، فرحلنا للّحاق بهم إلى هناك. وبعد أن تجولنا جميعاً نحو الساعة وسط مروج خضراء على شاطئ البحر عدنا أدراجنا إلى إسطنبول، حيث وصلنا مع السابعة مساء.

الدراويش

ذهبنا يوم الأربعاء ويوم الجمعة إلى دير[1] الدراويش، وهم رجال دين أتراك يؤدون طقوسهم في هذين اليومين من الأسبوع، ويوجد مسجدهم وديرهم في «بيرا» Péra.

والمسجد ذو شكل دائري، يحيط به ممرّ يرتفع عن الأرض بقدمين في عرض ثماني أقدام، ينتهي إلى مصطبة ترتفع عنه بقدمين يقتعدها المشاهدون. وفي صدر المكان قبالة الباب يوجد منبر المفتي، كبير رجال الدين في الدير، الذي بدأ قبل انطلاق الطقوس بإلقاء خطبة دينية نطقت مخارجُ الحروف في أثناء إلقائه إياها ببلاغة وفصاحة لا شك فيهما. وقد أكد لنا الترجمان ومن يفهم لغتهم أن الرجل كان يتحدث بكثير من التقوى ومن الصرامة في ما تعلق بتعاليم دينهم.

حين انتهى المفتي من خطبته نزل من على المنبر وجاء فجلس وسط الساحة خارج المصطبة، حيث يأتي الدراويش جميعاً فيدخلون بكل بساطة وتواضع، نازعين عنهم نعالهم حين يدخلون، ويمشي الواحد منهم نحو خمس خطوات أو ست بقدميه الحافيتين، ثم يضع القدم اليمنى على اليسرى ويركع بخضوع قبل أن يتّخذ مكانه.

يبدأ المفتي الجالس على قطعة مربعة من الثوب المطرز أو غيره بقراءة بعض الأدعية، يعقبها ترتيل آيات من القرآن، يقوم بعدها الجميع، بمن فيهم المفتي، فيطوفون ثلاث مرات وسط قاعة المسجد، ثم يعود المفتي إلى مكانه. بعد ذلك يخلع الدراويش الجبة فيبقون بقمصانهم وسراويلهم القصيرة وتنّورة واسعة تنحدر من الخصر، فيتقدّمون نحو شيخهم واحداً بعد الآخر يقبّلون يده، ثم يشرعون في الدوران حول أنفسهم، فيدخل الهواء تحت التنورة ويرفعها، فيصبح منظرها أشبه بأكبر السلال التي تستعملها السيدات الفرنسيات في حمل حاجياتهن. وحين يكتمل عقد الراقصين ينتظمون في دائرةٍ كأنهم ينجزون رقصة من رقصاتنا الدائرية، غير أنهم لا يمسك بعضهم بأيدي بعض، بل يدور كل منهم حول نفسه من دون أن يصطدم بغيره، بعضهم مُفرِداً ذراعيه معاً، وبعضهم يفرد واحدة ويمسك بيده الأخرى طرف سرواله القصير. وفي بعض الأحيان يدورون وأذرعهم مفردة جميعاً، لكن لا يلمس أحدهم الآخر أبداً، علماً بأنهم حين يدورون لا يبقون في أماكنهم، بل يتنقلون منها، بحيث يدور الواحد منهم عدة دورات حول الحلقة في أثناء الرقص.

---

(1) هكذا وردت في النص الأصل، وقد ارتأينا أن نحافظ في هذا وما يليه على التوازي الذي تَصَوَّره الراوي بين ما كان يعرفه في دور العبادة في بلاده وما رآه في بلاد المسلمين (المترجم).

وتصاحب الرقص موسيقى تُصدِرها أربعة من أعواد الناي رديئة العزف، وآلتان تشبهان الجلاجل، وصوتان بشريان ينبعثان من دِكَّةٍ أعلى يسار الباب، ترتفع نحو خمسة عشر قدماً عن الأرض.

يدور الدراويش حتى تتقطّع منهم الأنفاس، ثم يتوقّفون فجأة بقدم ثابتة كأنهم ما داروا ولا تعبوا. وبعد نحو خمس دقائق يعودون إلى شيخهم يقبّلون يده، ثم ينطلقون في الرقص من جديد، ويُعيدون ذلك بعدها كَرَّةً ثالثة.

بعد الانتهاء من الدوران، أو لنقل بعد أن يبلغ منهم الإجهاد مبلغه، يجلسون كلاً في مكانه، فيأتي قوم من الجلوس فيعيدون إلباسهم معاطفهم. وبعد أن يرتاحوا لربع ساعة يقومون فيتّجه أولهم نحو الشيخ فيقبّل يده ثم يقف أمامه، ويأتي التالي فيقبّل يد الشيخ ويد سابقه معاً ثم يقف إلى جانب هذا، ثم يأتي الثالث فيقبل يد الشيخ ويدي زميليه ويقف إلى جانبهما، وهكذا دواليك، حتى ينتهون جميعاً واقفين صفاً، فيشرعون في قراءة بعض الأدعية يختمون بها طقسهم.

الدراويش الصائحون

بعد ذلك بأيام ذهبنا لمشاهدة صنف آخر من الدراويش يُدعَون بالدراويش الصائحين، حيث لهم مسجد في «توفانا» يقيمون فيه شعائر مذهبهم كل خميس عند الظهر. يبدأ الحفل عندهم أيضاً بخطبة يلقيها عليهم مفتيهم، حتى إذا انتهى جاء فوقف وسط المسجد الذي ليس دائرياً كما الحال عند سابقيهم، بل هو بيضوي، يجلس الأتراك المستمعون على يسار الداخل إليه، ويجلس الدراويش على اليمين.

يقف المفتي وسط المسجد فيأتي الدراويش، أو لنقُل الممثّلين، فيكوّنون حلقة من حوله، ثم يشرع هو بالدوران فيدورون مثله بأقدامهم الحافية وهم يرتّلون آيات من القرآن الكريم، يُتبعها هؤلاء المؤمنون المزعومون بصرخات «هو! هو!» متتالية، ثم يمسكون بالمفتي كأنهم يراقصونه، ويتابعون الصراخ فيما أيديهم تتشابك، فإذا سقطت عمامة أحدهم لم يلتفت إليها حتى تكتمل الرقصة. وحين يبلغ الإجهاد من بعضهم مبلغه يجلسون التماساً للراحة، فيما يحيط الباقون بواحد منهم فيضمّون أيديهم حوله، ويقاربون ما بينهم حتى يكادون يخنقونه، مردّدين صرختهم «هو! هو!» والرجل يجيبهم عليها بمثلها. ويجيء رجال آخرون خلف هؤلاء فيقبلون ما بين أكتافهم وهم يقومون بحركات والتواءات مخلّة بالحياء، حتى لا يتصوّر الرائي أن مَن أمامه رجالُ دينٍ أتقياءُ يفعلون ما يفعلونه طلباً لمرضاة الله، بل مجانين أو مرضى بالصرع لا يدرون ما يفعلون.

فإذا انتهت الرقصة جلس المفتي أرضاً وجاء اثنا عشر رجلاً من بينهم فاصطفوا أمامه على شكل هلال، ثم شرعوا ينشدون جميعاً حوالي ربع الساعة، يقومون بعدها بإعادة رقصتهم الغريبة من جديد، بكل حركاتها العنيفة وصراخها والتواءاتها المستهجنة.

في يوم الجمعة التالي شاهدنا السلطان وهو في طريقه إلى المسجد، حيث يصلي الجمعة في المسجد الجديد أو في مسجد الوليد. وقد أخذنا مكاننا في محلّ قرّاءٍ على الطريق التي سيمرّ منها الموكب.

كان الإنكشارية واقفين صفّين على جانبي الطريق، بعمائمهم ولباسهم الرسمي، وتَقَدَّم الشواش الموكب بشواشيهم وقفاطينهم الرسمية، تبعهم «البستانجية» ورئيس الخصيان وآغا الإنكشارية، ثم السلطان محاطاً بستة من «الصول»، وهم ضباط الإنكشارية، ويحملون فوق رؤوسهم صفاً من الريش يرتفع على شكل مراوح يختفي وراءها شخص السلطان الذي يمتطي جواداً مطهماً رمادي اللون، بسربال من القطيفة الحمراء القانية المطرّزة بخيوط الذهب وحبات الزمرد، ولجام مزين بالذهب، وعلى لَبان الحصان استقرت درةٌ من الفيروز بحجمٍ قَلَّ نظيرُه.

ليس في ملبس السلطان أُبّهةٌ زائدة ولا فخامة، اللّهم إلا عُفرة عمامته التي تزينها الجواهر واليواقيت، تتوسّطها ماسة في حجم حبة جوز صغيرة رائعة اللمعان، ومثلها في مقدمة العمامة، وثالثة في مؤخرتها، وحمالة سيفه التي كانت من ذهب، ومثلها حمالات الأسلحة التي يحملها رئيس الخصيان.

بعد السلطان سار المنادي، ثم عدد من ضباط البلاط كلهم في كسوة حسنة، تليهم سبعة من الخيل الجياد المسرجة الملجمة على خير حال، يقودها وُصَفاء السلطان.

دخل السلطان المسجد فقرّرنا أن نبقى هناك ننتظر خروجه كي نراه من جديد، ووقفنا لهذا الغرض قبالة الباب، فلما خرج ركزت على شخصه دون غيره أتفحّصُه، فرأيت رجلاً أسمر اللون، ببشرة تحمل آثار الجدريّ، وعينين جميلتين، وأنف أقنى، ووجه أميَل إلى الاستطالة منه إلى الاستدارة. أمّا جسمه فبدا لي قصيراً، وهو ما لا أستطيع الحسم فيه بحكم أني لم أره إلا راكباً. فلما مرّ بالإنكشارية أومأ إليهم محيياً، ثم سار متابعاً طريقه نحو السراي في موكب منظّم بالكيفية ذاتها التي جاء عليها.

والسلطان يدعى «محمود»، وقد وضعه على العرش الإنكشاري الألباني «باترونا»[1] Patrona زعيم العصيان الأخير الذي شهدته إسطنبول في 1730، في محلّ عمّه السلطان أحمد الذي كان قد استولى على عرش أخيه والد السلطان الحالي. وهذه قصة باترونا كما رواها لي ثقات، وكما لا شك في

(1) هو «باترونا خليل» المعروف (المترجم).

أنها قد حدثت:

قصة «باترونا»

في سنة 1730 كان باترونا الحمال جالساً في ستة من أصحابه، يقارعون الخمر الرخيصة، ويتحدثون في شؤون الدولة. فلما لعبت الخمر برؤوسهم حكموا بأن السلطان ووزيره مستبدّان غاشمان، وأنّ الشعب يعاني من حكمهما، فقرروا تنصيبَ أنفسهم حُماةً للشعب، والعملَ على تغيير الحكومة وعزلِ السلطان والصدر الأعظم. واقترح باترونا نفسه رئيساً عليهم، فبايعوه على الزعامة.

تَسَلَّحَ الرجالُ السبعة بسيوف ومسدسات، ثم انطلقوا إلى المسجد الكبير حيث يوجد لواء النبي محمد، فاحتملوه وساروا به في الطرقات هاتفين أنّ الخليفة ووزيره ظالمان يتعيّن عزلهما، وأنّ من لم يتبعهم ويقف في صفّهم فلا يلومنّ إلاّ نفسه. وقد لقوا في أول الأمر سخريةً واستهزاء، لكنهم بادروا بقطع بضعة رؤوس، فخاف الناس منهم، وتبعهم أقوام تحت اللواء المقدس، فما هي إلاّ ساعةٌ وبعضُ الساعة حتى أصبحوا أكثر من خمسمئة، أي بعددٍ يُمكِّنهم من اقتحام أيّ حيٍّ شاؤوا، وإرغام أهله على الانضمام إليهم، فما إن حلَّ الليل حتى كان عدد الثوار أكثر من أربعين ألف رجل.

في اليوم نفسه كان السلطان أحمد ووزيره إبراهيم باشا في «سوتاري» Seutary يتفقدان سرّية من ثلاثين ألف رجل من التتار كانوا سيرسلون بها إلى بلاد فارس. فلما أبلغوا السلطان بما يجري في عاصمته رفض تصديق ما يقال له، مردّداً أنّ أحداً لن يجرؤ على العصيان وهو يعلم أن جيشاً من ثلاثين ألف رجل يرابط على أبواب إسطنبول.

في اليوم التالي كانت المدينة كلها قد أصبحت في أيدي الثوار، وجاء الخبر اليقين بذلك إلى الصدر الأعظم إبراهيم باشا، فأرسل فرقة من الإنكشارية لإخماد الثورة واعتقال متزعّميها. فلمّا بلغ الخبرُ الثوّارَ نظّموا أنفسهم للمعركة في ميدان سباق الخيل، وكانوا نحو ثلاثين ألف رجل وقفوا مستعدين للقاء المهاجمين. وعندما بدت طلائع الإنكشارية خرج إليهم باترونا يدعوهم للانضمام إليه وإلاّ هاجمهم برجاله فأبادوهم عن آخرهم. وبينما كان الكلام يجري بينه وبينهم كانت جماعة من رجاله قد انطلقت بناء على أمره، فسارت في دروب المدينة وأزقتها الخلفية، وعادت من وراء المهاجمين الذين أصبحوا بين نارين. فلما أدركوا ذلك لم يملكوا إلاّ أن ينضَمُّوا إلى الثوار ويصبحوا تحت أوامر باترونا.

في الليلة التالية عَبَرَ السلطان ووزيره المضيق وسارا إلى السراي، فاعتصما وراء أبوابه المغلقة. وفي فجر اليوم التالي دفع باترونا بقواته إلى باب القصر الذي لم يكن يقف دونه إلاّ بعض الحرس السلطاني.

ثم طالبوا السلطان بأن يسلّمهم الصدر الأعظم المسؤول بنظرهم ونظر من معهم عن كل ما تعانيه الإمبراطورية العثمانية من مشاكل وأمراض. ولم تطاوع السلطانَ نفسُه على تسليم وزيره إلى الثوار، وخشي أن يتعرّض للتعذيب على أيديهم، فأمر بخنقه في السراي، ثم أرسل إليهم جثته. فلما تَسلَّم باترونا الجثة أمر بسحلها في طريق «أندرينوبل» تجرها أربعة كلاب قد رُبط كل كلب منها إلى طرف من أطرافها الأربعة. ولم يكفِ باترونا ذلك، فجَأرَ بالشكوى من كونهم سلَّموه جثة هامدة لا الرجلَ المجرم الذي كان يريد أن يحاكمه، وأوحى إلى مناصريه بأنَّ السلطان لم يقتل وزيره إلاّ مخافة أن يفشي هذا تحت التعذيب أسرارَ فسادٍ وإفساد يريد السلطان أن تبقى خافية. وكان الناس في حالة من الهياج يمكن معها أن تصدّق أي شيء وأن تفعل أي شيء، فاقتحمت الجموع قصر السلطان، وألقت عليه القبض، وسجنته في حصن الأبراج السبعة حيث كان محمود ابن أخيه مسجوناً، وأطلقت سراح هذا الأخير الذي بايعوه سلطاناً مكان عمه أحمد.

بعد انتهاء هذه الأحداث قام باترونا بعزل كلّ أصحاب الوظائف في أرجاء الإمبراطورية العثمانية وإسنادِ وظائفهم إلى رجاله، فلم يَنجُ من ذلك كبيرُ الشواش ولا أميرَا «فالاشيا» و«مولدافيا»، ولا غيرهم من الباشاوات وحكام الأقاليم. ثم وضع الثائرُ السلطانَ تحت جناحه، وضمن له الحماية والنجدة بحكم أنّه هو من ولاَّه منصبه.

بيدَ أنَّ السلطان الجديد لم يطمئنَّ إلى هذا الثائر، فشرع يبثّ رسله في السرّ إلى أعيان مملكته وقادة الجيوش يؤلبونهم على باترونا ويخبرونهم أنه يتآمر عليه، طالبين منهم إعداد الجيوش للحظة التي سيبدي فيها الخائن عن نواياه. فلما استتبّ له الأمر بعد أشهُرٍ كما أراد بعث يستقدم الرجل تحت ذريعة الحاجة إلى استشارته في شأن من الشؤون، فلما دخل القصر أدخلوه حجرة سرية كان ينتظره فيها جماعة من البُكم قاموا بمهمتهم الاعتيادية في خنقه بالحبل القاتل. فلما انتهى منه أرسل في طلب باقي قادة العصيان، من كبير الشواش إلى أميري «فالاشيا» و«مولدافيا» وغيرهم من رجال الثائر، ففعل بهم مثل فعله برئيسهم. وقام بعد ذلك بإسناد الوظائف إلى من يستحقها، ثم أمر بإرجاع الإنكشارية إلى خدمتهم ومعهم باقي الثوار، حتى إذا انتهى كل شيء وعادت الأمور إلى نصابها أمَرَ بالبحث الدقيق عن رؤوس الفتنة، فأُحضِروا جميعاً، وضُربت أعناقُهم. ويقولون إنه قُتل يومَها أكثر من أربعين ألف رجل. أمَّا عند قدومنا إلى إسطنبول فلم يكونوا يقطعون أكثر من خمسة وعشرين إلى ثلاثين رأساً في اليوم، وقد رأيت خمساً منها معلقةً أمام باب السراي.

هكذا طهَّر السلطان محمود إمبراطوريته من هذه العناصر الخطيرة التي استطاعت الإمساك بزمام

الأمور في الدولة لستة أشهر متواصلة.

في العشرين من نوفمبر / تشرين الثاني ذهبت إلى «سادياباد» Sadiabat، حيث أقام السلطان قصراً للنزهة قيل لنا إنّه جعله على شكل قصر فرساي الفرنسي بحسب الرسم التخطيطيّ الذي جاءه به عنه سفيرُه في فرنسا محمد أفندي.

تبعد قرية «سادياباد» عن إسطنبول نحو فرسخين، وتقع في سهلٍ على ضفة نهر صغير يصبّ مياهه في المرسى. وضفتا النهر مرصوفتان بالحجر، مكوِّنَتَين قناةً عرضُها نحو خمس عشرة قامة. ويعلو القناة في منتصفها جسر خشبي مطليّ بالأحمر والأخضر، يُرقى إليه بزوج من السلالم، تحملها قضبان حديدية معقوفة، يرتكز أحد طرفيها على الأرض والآخر على أكبر الأعمدة التي تحمل الجسر. وفي منتصف الجسر شرفتان تطلاّن على الماء، يأتي السلطان إليهما حين يريد الترويحَ عن نفسه. وهناك شلالان بعرضِ النهر، تقطعهما أحواض صغيرة، بينهما ثلاثة أكواخ مغطّاة بالرّصاص، وعلى القرب منها كوخ أكبر مغطّى بالرصاص المذهّب، في وسطه نافورة ماء. وعلى مقربةٍ من بناية القصر التي تطلّ على النهر توجد ثلاثُ أوانٍ كبيرةٌ من المرمر، يخرج من كلٍّ منها نبعُ ماء. ويطلقون على هذا القصر اسم فرساي الصغير.

انتقلنا بعد ذلك بأيام إلى آسيا لزيارة مدينَتَي «خلقيدونة» و«سوتاري»، فرسونا بقاربنا عند البرج المعروف باسم «برج لياندر» Léandre[1] المشيّد على صخرةٍ تَبعُد نحو خمسمئة خطوة عن الشاطئ من جهة آسيا. ولا يدري أحد لماذا سُمّي البرج بهذا الاسم، ولا سيما أنه يقع قرب الدردنيل، لا في المكان الذي كان العاشق يعبر فيه المضيق ليلتقي بحبيبته «هيرو».

يوجد في البرج رجلٌ مهمّتُه إيقاد النار في أعلاه عند مَقدَمِ الليل لإرشاد السفن. وهناك صهريج كبير ماؤه طيب، قيل لنا إنه يخرج من نبع هناك، لكني لست أراه إلاّ من ماء المطر، ولا سيما أنّ الحارس أسَرَّ إلينا أنه يضطر إلى جلب الماء حين لا تجود السماء بما يكفي منه للاستهلاك السنوي.

ويقول آخرون إن باني البرج رجلٌ كانت له ابنة وحيدة تنبأ لها المنجمون بالموت بلدغة أفعى، فشيّد لها والدها هذا البرج، وجهّزه بكل ما يلزم للعيش، وحتى للمتعة والاستجمام، وجعلها تعيش فيه

(1) لياندر هو العاشق اليوناني المعروف الذي كان يقطع المضيق كل يوم من الضفة الغربية ليبلغ الضفة الأخرى حيث كانت تعيش حبيبته هيرو، التي كانت وصيفة للإلهة أفروديت. وكان يسبح مهتدياً بنور مصباح تضيئه له حبيبته في أعلى البرج، حتى كان يوم ذا ريح فانطفأ المصباح، وضاع لياندر في اللجة ليموت غرقاً. فلما ألقى البحر بجثته في الصباح انتحرت هيرو حزناً عليه بإلقاء نفسها من أعلى البرج (المترجم).

منعزلة عن العالم حتى يَقِيَها المصيرَ الذي جاءت به النبوءات. لكن ذلك كلّه لم يُفِد بشيء، إذ أُهدِيَت إلى الفتاة سلةٌ من توت الأرض كانت أفعى سامةٌ قد تسللت إليها، فلما مدّت الفتاة يدها إلى السلة لتناول من الثمار لدغتها الأفعى وتحققت النبوءة.

انتقلنا بعد ذلك إلى «قلقيدونية» التي لم تَعُد اليوم إلاّ قرية صغيرة لا يتصوّر مَن يمرّ بها جاهلاً تاريخها أن حاضرةً عظيمة مزدهرة كانت تقوم في مكانها. ويرى الزائر حتى اليوم الكنيسة التي اجتمع فيها مَجمَعُ قلقيدونية الشهير، أو قُل إنها كنيسة بنيت مكان الكنيسة الأولى؛ لأن تلك القائمة اليوم صغيرةٌ لا يبدو من المعقول أن يكون المجمع قد أقيم فيها.

انتقلنا بعد ذلك إلى «سوتاري»، وهي مدينة كبيرة عامرة، يفصلها عن إسطنبول مضيق البحر الأسود، لم أرَ فيها ما يستحق الذكر.

بعد ذلك بأيامٍ كان الأمير «سيرباتوفل» الذي ذكرته آنفاً يرحل رسمياً عن المدينة، وقد زار في اليوم نفسه المواقع الأثرية فيها، وكان لنا شرف مرافقته في هذه الزيارة.

بدأنا بكنيسة أيا صوفيا، التي بدأ بناءها الإمبراطور قسطنطين، وأكملها الإمبراطور جوستيان من بعده، وهي من روائع الفن المعماري العالمي، وشكلها يُتخذ نموذجاً لجميع المساجد، وقد وصفها السيد «غرولو» Grelot وصفا دقيقاً.

كنيسة أيا صوفيا

يقوم هذا البناء الشهير على أعمدة من الرخام السماقي والزجاج، بقبةٍ مزخرفة بقطع من الزجاج الملوّن المربّع بعرض أربعة خيوط، زرقاء وخضراء، تتخلّلها أوراقٌ من الذهب والفضة، في فسيفساءَ بديعةٍ تخلُب الألباب.

وقد أقدم الترك، في جهلهم بمثل هذه النفائس وعجزهم عن تقديرِها حَقَّ قَدرِها، على طلاء الجانب الأعظم من الجدران بالجبس، فلم يبق سالماً إلاّ القبةُ البعيدة عن متناولهم، والتي بدت كأنها تحتفظ رغم أنوفهم بزخارفها الجميلة. وقد أعطيتُ أحدَ الأتراكِ بضعةَ قروشٍ طالباً منه أن ينتزع لي جزءاً من الفسيفساء أحمله معي، فنزع حذاءه من قدمه ورمى به إلى القبة جاعلاً بضعَ قطعٍ من الزجاج تسقط من مكانها، فالتقطتُها واحتفظت بها على سبيل الذكرى.

انتقلنا بعد ذلك إلى مسجد السلطان أحمد، وهو مظلم من الداخل، يقوم على أربعة أعمدة هائلة

الحجم. والداخل إليه يحسب نفسه على ظهر سفينة لفرط ما يتشابك في سمائه من خيوط تحمل المصابيح الكثيرة التي لولاها لما كاد مَن فيه يرى ما أمامَه. وأمام المسجد ساحة رائعة الجمال جيدة الرَّصفِ، والدرج الممتد أمام بوابته الرئيسة من المرمر الأبيض.

هناك في إسطنبول سبعةُ مساجد مَلَكيَّةٌ مُتقَنةُ البِناء، مزينةٌ بأعمدةٍ رائعة بديعةِ الشكلِ، مجلوبة من خرائب طروادة وهرقلية وغيرهما من روائع المدن الإغريقية القديمة.

ويكمن سرُّ جمالِ تلك المساجد وجلالُها في قوةِ البنيان وصلابته وارتفاعِ المنارات واتساعِ الساحات.

مغامرة حدثت لقبطان سفينة إنجليزية

في الثامن من شهر مارس / آذار كانت سفينة إنجليزية تستعدّ للإقلاع بعد أن كانت راسية في مرسى «بيسيتاش» Bésestache قرب «تيفانا»، وقد أقام قبطان السفينة مأدبة عشاء على شرف سفير بلاده، واستقبل السفيرَ عند قدومه بطلقات من المدفعية تعبيراً عن سروره بهذا الشرف، وظلّ طيلة النهار يطلق مدافعه بالدافع نفسه، فلما غادر السفير السفينةَ في الليل مودِّعاً عاد القبطان ولمّا يبتعدِ السفيرُ بقاربه عن السفينة بأكثر من رمية بندقية، فأطلق مدافع بطاريته معاً.

استيقظ السلطان على دويّ المدافع، فظنَّ أنّ الثوار قد عادوا إلى التجمع واستولَوا على بطاريات المدافع المُقامة في «تيفانا»، وبادر من فوره إلى إرسال مبعوث إلى الصدر الأعظم يخبره بما حدث، ويأمره أن يستَجلِيَ الأمرَ، فما لبثوا أن علموا أن قبطاناً إنجليزياً هو من كان وراء الحادث.

في صباح الغد استدعى الصدرُ الأعظم سفير إنجلترا وطالبه بتسليم القبطان الذي تجرّأ على إطلاق نار مدافعه في تلك الساعة المتأخرة من الليل، لكن السفير رفض تسليمهم الرجل، لِعِلمِهِ أنهم إن أمسكوه ساموه سوءَ العذاب.

في اليوم نفسه أرسلوا في طلب تاجرين إنجليزيين بذريعة الرغبة في بيعهما بعض السلع، وجاء الرجلان فما أن جاوزا باب الجمارك حتى ألقوا عليهما القبض مطالبين في مقابل الإفراج عنهما بتسليم القبطان الذي تسبب في إزعاج السلطان بإطلاقه النار في المرسى.

بعد ذلك أرسل الصدر الأعظم في استدعاء ممثّلي الجالية الإنجليزية، فأخبرهم بأنَّ عليهم أن يختاروا واحداً منهم سفيراً؛ لأن الباب العالي لم يعد يقبل بالسفير الحالي. وقد تطوَّعَ السيدُ السفير الهولندي بمحاولة إصلاح ذات البين، لكن جهوده لم تفضِ إلى شيء، فاستنجدوا بالسفير الفرنسي

السيد «فيلنوف»، الذي أفلح أخيراً في حلّ النزاع بطريقة سلمية.

سرت بعد ذلك في المدينة أخبارٌ مفادُها أنّ القضية استجلبت للصدر الأعظم غضب السلطان، ولم يمضِ زمن طويل حتى تواردت على السراي شكاوى متعددة بشأنه، فما كان من السلطان، وهو حديثُ عهدٍ بالحكم لم يستتِبَّ له الأمرُ بعدُ ولا يزال يخشى ثورةً شعبية تُطيح به، إلاّ أن بادر بعزل الصدر الأعظم المسمى «طوفال عثمان»، وأرسله للخدمة في بلاد فارس.

قصة طوفال عثمان

في عام 1727 كان طوفال عثمان على متن سفينة تركية هاجمها قرصان من جزيرة مالطة قرب الشواطئ المصرية، وقد استماتت الترك في الدفاع عن أنفسهم، لكن المهاجين كانوا أقوى منهم وأكثر عدداً، فاستولوا على السفينة، وأسروا من عليها واقتادوهم إلى مالطة. فلما وصلوا إلى هناك تمَّ بيعُ الأسرى، فكان طوفال عثمان من نصيب تاجر مالطي يدعى «أرنيو» Argniau. ولم تمضِ أيام قليلة حتى أدرك التاجر مقدار ما لدى العبد الذي اشتراه من علمٍ ومن أدب، فأولاه التوقير والاحترام، ولم يعد يكلفه بشيء مما يَشقُّ، مجتهداً في تخفيف العبوديّة عليه. وكان طوفال من جهته عارفاً للرجل فضله عليه شاكراً له أياديَه البيضاءَ وحُسنَ فِعلِه معه، ولا يفتأ يكرّر له أنه إذا تكرَّم عليه بالحرّية وساعده على الرجوع إلى بلاده فلن ينسى له حسن صنيعه، وأنه إذا ما أسعده الحظ بأن يصبح صدراً أعظم للدولة العثمانية فسيعرف كيف يردُّ له جيله أضعافاً مضاعفة.

رقَّ قلبُ السيد «أرنيو» للرجل، وارتاحت إليه نفسه، فاكترى مركباً جهَّزَه له، وأركبه فيه، وأعطاه مالاً لمواصلة طريقه حين ينزل البرّ، وأوصى قائدَ السفينة أن يُنزله في مكانٍ آمنٍ حَدَّدَهُ له، ثم ودّع العبدُ سيدَه المحسن إليه ودموعُ العرفان تملأ عينيه، مكرِّراً وُعُودَه له بِرَدِّ الجميل.

أنزل القبطانُ راكبَه في مكانٍ قريب من الشواطئ التي كان قد تمَّ أسرُه عندها. وفي السنة نفسها حظي طوفال عثمان برتبة الباشوية، فبادر يرسال إلى سيده المالطي مالَه الذي كان قد دفعه ثمناً له، والمالَ الذي أقرضه إياه، علاوة على عددٍ من الهدايا السنية.

وجاءت سنة 1730، فأصبح طوفال عثمان صدراً أعظم، ولم يكن قد نسي سيدَه القديمَ، فأرسل إليه يستقدمه إليه في إسطنبول. ولبَّى الرجل الدعوة، فجاء برفقة ابنه أواخِرَ فبراير / شباط من عام 1731 ليزور الوزير الذي خصص لهما استقبالاً حافلاً وأتحفهما بالعديد من الهدايا. وقد زار الرجل عبدَهُ القديمَ بعد ذلك مراتٍ متعددةً، فلقي منه في كل مرّة بالغ الحفاوة والإكرام. وقبل أن يتم عزل

طوفال ببضعة أيام، استصدر للمالطي فرماناً من السلطان يسمح له باستعمال إحدى السفن السلطانية مع شحنها بما يريد من بضاعة.

سارع التاجر المالطي إلى توديع صاحبه شاكراً، فشَحَن البضاعةَ، ورحل بالسفينة إلى جزيرته، فما هي إلاّ أيام حتى سمع بنكبة هذا الوزير الكريم الجواد.

وصف القسطنطينية

القسطنطينية، المدينة الأوربية، عاصمة بيزنطة، هي التي يسميها الأتراك إسطنبول، وقد جعلوها عاصمة لدولتهم العثمانية. المدينة مشيّدة على البوسفور من ناحية تراسيا، فهي تهيمن بذلك على البحرين الأبيض والأسود معاً، ولها ميناء مِن أجملِ ما يُتصوَّر من الموانئ وأرحبِها مرسىً وأيسرِها للسفن إقلاعاً ورُسُوّاً. وتقوم المدينة فوق شبه جزيرة تمتدّ على شكل لسان مدبّب داخل البحر عند بداية البوسفور، يلتقي بالبروبونتيد عبر جسر أوكسين الذي يصل أوربا بآسيا، مكوناً شكلاً مثلثاً.

تقع أولى زوايا هذا المثلث من جهة المشرق، وهي رأس شبه الجزيرة، ويسمونها رأس السراي؛ أما الزاوية الثانية فإلى الجنوب ناحية بروبونتيد، حيث ينتهي السور المزدوج الذي يقوم من ناحية البر، والذي تعلوه أبراج متقاربة، أو قُل الذي كانت تعلوه، لأن السور والأبراج جميعاً مهملةٌ متلاشية؛ وأما الزاوية الثالثة ففي أقصى المرفأ، وتمتد من ناحية الغرب إلى ناحية الشمال عند ساحة الخليج التي كانت تُعرَف باسم ساحة «بلاكيرن» Blaquernes، وفي هذا الخليج يصبّ نهران صغيران هما «سيتادوس» Citadus و«بربيز» Barbise.

ذاك ما يمكن أن يقال عن موقع مدينة القسطنطينية.

لا تهبُّ في هذه البلاد إلاّ رِيحانِ؛ شماليةٌ وجنوبية، فمتى هبت الريح الشمالية لا تستطيع السفنُ القادمة من بحر مرمره الصعود، لكن النازلة من البحر الأحمر تكون تحت ريح طيبة، فتأتي زرافات ووحداناً تُزَوِّدُ المدينة بما تحتاج إليه من سلع وغيرها. وعلى عكس ذلك ما يقع حين تهبّ الريح من الجنوب، فلا شيء يدخل من البحر الأسود، وكلّ حاجيات المدينة تأتي حينها من البحر الأبيض المتوسط من خلال بحر مرمره. هكذا تعيش المدينة على إيقاع هاتين الريحين اللتين تَفتحان وتُغلقان بالتناوب مدخليها. أمّا إذا سكنت الاثنتان معاً فإن الزوارق ذات المجاديف تتولّى أمر نقل الأشخاص والسلع.

والحوض العظيم الواقع بين إسطنبول و«غالاتا» وقريتي «فندقلي» و«توفانا» يُعَدُّ بحقٍّ أجمل مرفأ في العالم، غير أنه جمالٌ نحتته يدُ الطبيعةِ فلا دَخلَ ليد الإنسان فيه.

والناظرُ المتوقف في منتصف هذا الحوض يرى إسطنبول إلى الجنوب والغرب، و«غالاتا» والقريتين اللتين ذكرتهما إلى الشمال، ومدينة «سوتاري» إلى الشرق، في مشهدٍ فريدٍ يأخذ جمالُه الخلابُ بمَجامِع النفس. كل بنايات هذه المدن والقرى مبنيةٌ على الهضاب على شكل مدرّجات، بما يتيح لعين الرائي أن تبصر كلّ شيء بنظرة واحدة. والحقّ أن منظر أشجار السرو، وفسيفساء المنازل الخشبية المطلية، وقباب المساجد ومناراتها، كل ذلك يسهم بوافرِ النصيب في تشكيل هذا المنظر الرائع.

لكن ذلك كله لا يتعدّى المظهرَ الخارجي.. فالمدينة من الداخل ليست من الجمال في شيء، بأزقة ضيقة متعرّجة لا يني الماشي فيها صاعداً نازلاً، وليس فيها من شارع جميلٍ إلاّ الشارع الرئيس النازل من باب «أندرينوبل» إلى السراي، وبعض الشوارعِ القليلة حول ميدان السباق الذي كانت تقام فيه سباقات الخيل في الماضي.

وتنتصب في وسط هذه الساحة مِسَلّتان بارتفاع نحو ستين قدماً، وعمودٌ منحوت على شكل ثلاثة ثعابين ملتوية بعضها على بعض، يقولون إن السلطان محمد الثاني قطع أحدَها نصفين بضربة من سيفه في أثناء أحد السباقات المقامة هناك.

مؤسسات مخصصة لإطعام القطط الضالة

هناك في هذه المدينة كثير من المؤسسات التي تهتمّ بإطعام القطط والكلاب الضّالة. ومستخدمو هذه المؤسسات يطوفون المدينة لتوزيع الطعام على تلك الحيوانات؛ فترى الواحد منهم يحمل أكباد الخراف إلى الأمكنة المعيَّنة للتوزيع، حتى إذا بلغ المكان أطلق صيحةً تسمعها القططُ التي تتسابق إليه من كل جانب، فيتسلق بعضها ساقيه ويعلو بعضٌ ظهرَه وكتفيه، فما هي إلاّ هنيهة حتى يصبح الرجل مغطًى بالفرو من رأسه حتى قدميه، حتى إذا استلم كلُّ قطٍّ نصيبَه انصرفت جميعاً فلا تعود حتى صباح اليوم التالي. وإذا كان هذا دأبُ الأتقياء من المسلمين في فعل الخير للحيوان، فماذا ترى يجد الإنسان عندهم؟!..

وقد حل شهر بيرم أو رمضان، وهو شهر الصيام عندهم، ووافق حلولُه وقتَ الصيام لدى المسيحيين الأرثوذوكس ومثلَه عند اليونان المنشقّين، فصام في القسطنطينية ذلك العامَ أهلُ ثلاثِ عقائدَ مختلفةٍ في وقت واحد.

لا يقرب الأتراك الطعام ولا الشراب خلال النهار من شهر الصيام، حتى إذا غابت الشمس وراء سُدُلِ الظلام حَلَّ لهم أن يأكلوا ويشربوا إلى أن يطلع الفجر فيمسكون. وهم بتعاطيهم الأكل والشرب في الليل يجعلون من ليلهم نهاراً، ويخلودهم إلى الراحة والنوم في النهار يجعلون نهارهم ليلاً.

فإذا غابت الشمس أشعلوا المصابيح والقناديل التي تعجّ بها المساجد. ومن ضاحية «بيرا»، حيث يقطن السفراء الأجانب، تبدّى المدينة للرائي ليلاً في ثوب بهيج من الأنوار المتلألئة. وتتميّز المساجد السلطانية عن غيرها بكثرة منابرها وارتفاعها، وكذا بالحبال التي تُمَدُّ بين مسجد وآخر، وقد عُلِّقت إليها أعداد لا حصر لها من المصابيح. وحول كلّ مسجد منها ممرّات مرتفعة يعلوها المؤذنون للنداء إلى الصلاة، وتكون كلها مضاءةً بالمصابيح في هذا الشهر المقدس.

حماقات اليونان المنشقين

في يوم عيد اليونان المنشقّين يذهب الرجال والنساء إلى قبور آبائهم وأقربائهم ليبكوهم. وقد رأيت ثلاثاً من نساء أهل هذه العقيدة في مقبرةٍ تضمّ رفات زوج إحداهن، فيما الثانية أمها والثالثة أختها. وكان معهن قسيس أعطينه قرشاً ليُعيرهنّ إناء يرششن به شيئاً من الماء المقدّس فوق قبر الراحل. وكنّ يتناوبْنَ على القبر، فتأتي واحدة منهن إليه فتنوح وتولول، حتى إذا انتهت عادت على مكانها تجلس في هدوء، وجاءت الثانية ففعلت مثل فعلها، وكذا الثالثة، يتناوبن على ذلك تناوُباً. فلما انتهين رحلن من هناك منشرحاتٍ باديات الانبساط، لا يظهر عليهنّ أدنى أثر لحزنٍ ولا لِلَوعة. وكان هناك في جوانب المقبرة عدد من الرجال والنساء يفعلون الشيء نفسه، متناوبين التناوبَ الغريبَ ذاتَه.

قبل رحيلنا بأيام زرنا القنوات التي كانت في ما مضى تحمل الماء إلى القسطنطينية وضواحيها. وقد وجدناها قنواتٍ في غاية الإتقان، وهي من بناء الإمبراطور قسطنطين، غير أنها لم تعد تحمل اليوم ماءً إلى أيّ مكان؛ لأنّ من أضحَوا يملكون أمرها قد أهملوها وتركوها دون عناية حتى تهدّمت وكادت تتلاشى. ويبدو أنّ كل شيء في هذه البلاد بدأ يموت منذ أن فتحها محمد الثاني، لا البنايات والتجهيزات الأثرية فحسب، بل الإنسان كذلك، إذ إنّ سكان البلد يصيبهم الطاعون كلّ سنة.

ذهبنا بعد ذلك لتناول طعام الغداء في قرية تدعى «بلغراد» Bellegrade على بعد أربعة فراسخ من القسطنطينية، يمتلك فيها السفراء جميعهم منازلَ ريفيةً ينعزلون فيها حين ينزل الطاعون بالبلاد.

قضينا شهر الصيام كله تقريباً في القسطنطينية، وقمنا خلال هذه المدة بمحاولات عديدة لرؤية حديقة السراي، وكذا مبنى رائع الجمال يقوم على شاطئ المرسى كثيراً ما يحلّ به السلطان كلّما رغب

في الترويح عن نفسه. وقد قمنا من أجل ذلك بعبور الميناء، فلما وصلنا إلى الطرف الآخر طلبنا من حرّاس المبنى أن يأذنوا لنا بالدخول إليه فرفضوا. فطلبنا الإذن بزيارة الحدائق فأذِنَ لنا أحدُ القائمين على البستنة بالدخول لِقاءَ بضعة قروش. وقد سمحوا لنا بالتوغل لمسافة مئة خطوة تقريباً في تلك الحديقة، مع إبقائنا طيلة الزيارة تحت المراقبة. وعلى قدر ما استطعنا رؤيته من الحديقة بدت لنا ممرّاتها ضيّقة متعرجة، وأشجار السرو فيها مزروعة في غير ما تنسيق ولا نظام، وتتبدى هنا وهناك مساحات صغيرة مزروعة بالكرنب وأخرى بغير ذلك من الخضار. وإذا كان المكان جميعه مثل الذي رأينا منه فإنه يصحّ فيه وصف مزرعةٍ للبقول أكثر منه متنزَّهاً للسلطان.

لم نبق في الحديقة أكثر من عشر دقائق عدنا بعدها إلى الحرس نتوسّل إليهم أن يأذنوا لنا بزيارة المبنى، لكنهم رفضوا كالسابق. وبينما هم منشغلون بالحديث معي غافَلَهُم السيد كوندامين فانسلَّ إلى الداخل من باب ليس عليها حرس، فمضى يتجوّل لوقت طويل داخل البناء ويستمتع بجماله، فيما أنا أتساءل أين هو، حتى إذا انتهى خرج علينا من مكانٍ ما كنا لنستطيع الاقتراب منه لو رآنا الحرس. والحق أنه لو لم يلجأ إلى هذه الحيلة لما تمكّن من زيارة ذلك المكان الجميل.

الانطلاق من القسطنطينية

كان انطلاقنا مقرراً يوم الخامس من أبريل / نيسان 1732، فركبنا في ذلك اليوم عند الرابعة عصراً متنَ سفينة تجارية فرنسية بقيادة القبطان «لامبّري» Lampré من مرسيليا. وعند السادسة أقلعنا تحت ريح ضعيفة، سكنت تماماً عند منتصف الليل، فلبثنا مكاننا حتى يوم الثامن من الشهر، حيث هبّت ريح طيبة. وعند الواحدة بعد ظهر اليوم التالي مررنا قبالة «غاليبولي» Gallipoli، ثم ألقينا مرساتنا في «بيسكيير» Pesquière شمالَ شرقِ الدردنيل بعمق اثنين وعشرين باعاً على قاعٍ من صخر. فلما أُلقِيَت المرساة سارعنا في النزول إلى البر، فذهبنا إلى عند السيد القنصل حيث قضينا ليلتنا في ضيافته، كما اغتنم القبطان الفرصة فاقتنى من هناك ما تحتاج إليه السفينة من مؤونة. وفي العاشر من الشهر قضينا ليلتنا على ظهر السفينة، لنقلع في الخامسة من فجر اليوم التالي.

الانطلاق من الدردنيل

أقلعنا من الدردنيل تحت ريح طيبة دفعتنا بسرعة أربعة فراسخ في الساعة، فخرجنا من المضيق عند السادسة والنصف، فجاوزنا جزيرة «تينيدوس» Ténédos، وسرنا ميمّمين شطر جنوب الجنوب الغربي. وعند الواحدة بعد الزوال دارت الريح فأصبحت شمالية، فسرنا نحو الجنوب الغربي حتى

جاوزنا «الرأس الذهبي» قبل غروب الشمس، وفي الخامسة من فجر الغد مررنا بين «كـيا» Xéa و«الجزيرة الطويلة» L'Île Longue.

يوم السادس عشر هبّت ريح شمالية غربية خفيفة، وعند غروب الشمس بدت لنا جزرُ «أنتيميل» Entimille و«سالكونيرا» Salconéra و«بيل - بول» Belle - Poule. ولمّا كان الليل مظلماً لا قمرَ فيه فقد طوينا قدراً من الأشرعة العليا، حتى إذا شقشق الفجر بدت لنا جزر «سيريجو» Cérigo و«سريجوت» Cérigotte ورأس «باندا» Panda من جزيرة «كاندي» Candie. فلما سكنت الريح عند الظهر كنا على بعد فرسخين من جزيرة «لوفي» Lové.

يوم الحادي والعشرين من الشهر أبصرنا جزيرة مالطة، وعند السادسة مساء كنا نعبر بعرضها.

في التاسع والعشرين هبّت ريح قوية ما فتئت تزداد قوة حتى اضطررنا في السادسة من فجر اليوم التالي إلى إنزال قدر من الأشرعة العليا اتقاءَ سطوةِ البحر، ثم أرخينا القلوع تحت رأس قرطاج في خليج تونس قرب حصن «حلق الوادي»، وألقينا المراسي عند منتصف النهار، بعمق ستة أبواع على قاع من طين.

وصف قرطاجة

كانت قرطاجة في الماضي أهمَّ مدينةٍ على الساحل الأفريقي من أرض البربر، ويقول بعض المؤرخين إن «ديدون» Didon[1] هي التي شيَّدَتها. كانت المدينة تقع على نتوء من الأرض يُكَوِّنُ شبهَ جزيرةٍ تمتدّ في البحر بين «عُتَيقة» Utique وتونس. وقد كانت مدينةً مزدهرة عامرة، سكانُها محاربون أشداء يخشاهم الجارُ ويَرهَبهم البعيد. وقد افتتح «سيبيون الأصفر» هذه المدينة في 146 قبل الميلاد، فخرّبها وأمعن تقتيلاً في أهلها الذين لم ينجُ منهم سوى خمسة آلاف فرد، هم كلّ من تبقّى من سكان تلك المدينة العظيمة التي لم يعد الزائر يرى منها اليوم سوى أطلال قليلة. ويطلق البحارة على شبه الجزيرة اسم رأس قرطاج، ولن أتوسّع في وصفها طويلاً لأنّ كثيراً من الرحالة قد وصفوها قبلي بكثير من الدقة، معَ أنه لا أحد منهم يذكر لنا مَن أسَّسَ المدينة على وجه التحديد.

يجد الداخل إلى خرائب المدينة سبعة عشر صهريجاً في مواجهته، طول كل منها نحو ثمانين قدماً، وهي بعيدة الغور جيدة التسقيف، ينزل إليها النازل بسلم حجريٍّ، اثنتا عشرة درجة من أدراجه في

(1) تُعرف أيضا باسم «إليسا» Elissa، وهي أميرة طروادية أسطورية (المترجم).

الهواء وخمسٌ غاطسةٌ في ماءٍ جيدِ الحفظِ طيب الطعم. ويبدو أنّ هذه الخزانات الضخمة كانت مُعَدَّةً لتزويد المحاربين والسكان بالماء في زمن الحرب. ولا تمتدّ أطلال المدينة من عند حافة البحر حتى أعلى النتوء الصخري فحسب، بل تترامى إلى ما وراء ذلك بعيداً داخل السهل.

الانطلاق من خليج قرطاج

في ليلة الأحد الموافق للرابع من مايو / أيار أقلعنا تحت ريح آتية من الشمال الغربي، فلما كنّا مبحرين في عَرض «بورت فارين» Porte Farine أبصرنا غليوناً مسلّحاً يتّجه نحونا، فأمر القبطان فوراً بإحضار كُور المدفعية فوق السطح وبفَتحِ نوافذ المدافع وتحريرِ فوهاتها استعداداً لكل احتمال. وتمّ توزيع المراكز القتالية بين الملاّحين الذين انقسموا قسمين؛ اهتم أولهما بالملاحة، ورابَطَ الثاني في المواقع الدفاعية عند مقدّمة السفينة تحت قيادة نائب القبطان، فيما أخذنا مواقعنا أنا والسيد كوندامين والكاتب مع القبطان في المؤخرة. بيد أن الغليون حين اقترب منا عرف أصحابُه جنسية سفينتنا، فجاوزونا تحت الريح دون أن يأتوا أيَّ شيءٍ مما يُريب.

في الخامس من الشهر أبصرنا جزيرة سردينيا ورأس «طولار» Tolare. وحسَبَ الملاحون الارتفاع عند ذلك فكنّا على تسع وثلاثين درجة وأربع عشرة دقيقة شمالاً. وقد وجدنا أن جزيرة «سان بيير» Saint - Pierre توجد على خمس عشرة درجة إلى الجنوب مما تُبيّنه خريطةُ السيد «برتولو» Berthelot.

بقيت الريح ضعيفة حتى التاسع من الشهر، وفي الرابعة من عصر هذا اليوم أبصرنا الأرض، وعرفنا جبل «كودون» Coudon. فلما كانت الرابعة عصراً اشتدت قوة الريح مما أرغمنا على إنزال طرف من الشراع الكبير، ويَمَّمنَا شمال الشمال الغربي لتجاوز جزر «هيير» Hyères. وطابت الريح فكان في الإمكان رفع الأشرعة ومواصلة الإبحار شمالاً لولا هياج البحر الذي اضطرنا إلى الإسراع بالاحتماء بخليج الجزر المذكورة، حيث دخلنا من الممرّ الصغير الواقع إلى الجنوب من «بوركيرول» Pouquierolle، وألقينا المرساة بعمق اثني عشر باعاً على قاعٍ من طين.

يوم الأحد الحادي عشر من الشهر ذهبنا إلى مكاتب المركز الصحي في الجُزُر، حيث أرسلنا بريداً سريعاً إلى مرسيليا يُخطِر بوصولنا. وقد سُمح لنا بالنزول شريطة ألا نخاطب ولا نخالط من الناس أحداً، والتزمنا من ناحيتنا بهذا الشرط، وكذلك تجنّبَنا الناسُ من جهتهم، فكانوا يمرّون أبعد ما استطاعوا منا، وكأنّنا نحمل الطاعون، علماً بأنّنا خرجنا من القسطنطينية بأعلام بيضاء دليلاً على أننا

لا نحمل أثراً لأيّ مرض.

وبينما نحن هناك مرّ بنا السيد مدير مكتب الصحة وبرفقته السيدة حرمه والآنسة ابنته التي كانت تحمل في يدها باقات من الورد، فطلبت منها أن تعطيني إحداها، فاستجابت بكلّ لطف، لكن مع اتخاذ الحذر نفسه، إذ وضعَت الورود أرضاً ثم تراجعَت إلى الخلف مسرعة. وقد شكرت لها لطفها، ثم انتظرت مكاني حتى ابتعدَت قبل أن أتقدّم لألتقط هديتي من على الأرض.

ليلةَ الثاني عشر من الشهر زادت شدة الريح حتى اضطررنا إلى إنزال كل الصواري وإرخاءِ الحبال خيفة أن تلعب الريح بالسفينة فتجنح وتقطع مراسيها على الرغم من وجودنا في الخليج.

هدأت الريح أخيراً يوم الثالث عشر من الشهر فأقلعنا، لكن ما إن غادرنا الخليج حتى سكنت تماماً، فبقينا في مكاننا في بحر هادئ، واضطررنا إلى إنزال القارب والزورق مخافة أن تجرفنا التيارات المائية نحو الصخور قرب الجزر.

فلما كان يوم الغد؛ الرابع عشر من الشهر، هبت ريح شرقية طيبة فسرنا مبحرين بأسرع ما أمكن، حتى إذا كانت التاسعة صباحا كنا نبحر في عَرضِ «نوتردام دو لا غارد» Notre - Dame de la Garde، وهو ديرٌ مُشيَّدٌ على قمة جبل على مقربة من مرسيليا. وقد أطلقنا تسع طلقات مدفعية تحيةً للدير عند مرورنا به، وصلينا صلاة شكرٍ للربّ على سلامة العودة.

رسونا في «بومغواي» حيث ترسو السفن القادمة من المشرق لقضاء أيام الحجر الصحي. وعند الثالثة بعد الظهر وضعنا متاعنا في زورق، ونزلنا البر، فالتحقنا بالمحجر لنقضي به أيام العزل الصحي.

وصلنا إلى المكان الذي هو مصحّة ينزل بها المسافرون القادمون من بلاد الشرق وغيرها من البلاد ذات الأوبئة، فيبقون فيها لمدة معينة تكفي للتأكّد من سلامتهم. وقد أُفرِدَ لنا فوراً حارسٌ مهمتُه مَنعُ أيِّ اتصالٍ بيننا وبين مَن سَبَقَنَا إلى هناك من الناس ومَن قد يلينا منهم.

في اليوم التالي جاؤوا يُبَخِّروننا، وقد أخرجونا من أجل ذلك من غرفتنا، ثم أغلقوها على متاعنا وأوقدوا فيها ناراً من تبن ومن أعشاب أخرى كريهة الرائحة، فلما امتلأت الحجرة بالدّخان أدخلونا إليها وتركونا هناك نحو سبع دقائق. ولا أظنّ الثعالبَ التي يخرجها القناصة من جحورها بالدّخان تكونُ حينَها أسوأ حالاً منا في حبسنا ذاك، ولو أنهم تركونا هناك لِرُبعِ ساعةٍ لما بقي أحد منا حيّاً، فالدخان كان خانقاً إلى درجة أنه ترك لنا جروحاً في حناجرنا عانينا منها لأكثر من ثمانية أيام بعدها. ولا يُستثنى أحد من هذا الإجراء، الذي يكرّرونه ثانية بعد خمسة عشر يوماً.

بعد أربعة وعشرين يوماً أُطلِق سراحُنا، فدخلنا طاهرين مطهَّرين إلى المدينة التي لم نبقَ فيها إلاّ خمسة أيام، امتطينا بعدها عربةً نقلتْنا إلى ليون، ومنها ركبتُ أخرى قادتني إلى باريس التي دخلتها يوم التاسع والعشرين من يونيو / حزيران 1732.

- انتهى -